كتاب الفروق والمفارقات

obeikandl.com

obeikandl.com

فصل
فى الفرق بين السماع والاستماع

السامع : هو الذى يصل الصوت إلى مسامعه من دون قصد إليه ، والمستمع : المصغى بسمعه إليه ، والأول غير مذموم فيما يذم استماعه ولا ممدوح فيما يمدح استماعه ، وقد قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ [القصص : ٥٥] فمدحهم على الإعراض عنه ولم يذمهم على سماعه إذا كان عن غير قصد منهم . وقال النبى ﷺ : « من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون، صب فى أذنيه الآنك يوم القيامة » (١) أو كما قال ، وكذلك ما رواه الحافظ أبو بكر ومحمد بن محمد بن سليمان الباغندى فى الجزء الثانى من حديثه حدثنا أبو نعيم هو عبيد الله بن هشام الحلبى ـ وقال فيه أبو حاتم : صدوق ـ حدثنا ابن المبارك عن مالك بن أنس عن محمد بن المنكدر عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ :« من قعد إلى قينة يسمع منها صب يوم القيامة فى أذنيه الآنك » (٢) وفى بعض ألفاظه : « من قعد إلى قينة يستمع منها » وكذلك ما مدح من المستمع إنما هو الاستماع والإصغاء كقوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾[الزمر] وقال : ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ﴾ [الاحقاف : ٢٩] وقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا ﴾ [الأعراف : ٢٠٤] .

ولا يختص بحاسة السمع بل يتعلق بحاسة السمع ، ويتعلق بحاسة الشم والنظر واللمس كذلك ، فإن المحرم لا يحرم عليه شىء من الطيب إذا حملته الريح وألقته فى خياشيمه ولا يجب عليه سد أنفه كذلك ، وإنما الذى منع منه القصد لشمه واستنشاقه وتروحه وهذا شىء، ومجرد شمه من غير قصد شىء آخر ، وكذلك النظر إنما المحرم منه قصد النظر وإتباع النظرة النظرة ، لا نظر الفجاءة ؛ ولهذا قال النبى ﷺ : « ولا تتبع النظرة النظرة ، فإنما لك الأولى وليست لك الأخرى » (٣) ، وقال على : سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجاءة فأمرنى أن أصرف بصرى (٤) وكذلك اللمس إنما المحرم منه قصد مس

(١) البخارى (٧٠٤٢) فى التعبير ، باب : من كذب فى حلمه .
(٢) كنز العمال (٤٠٦٦٩) ، والجامع الصغير للسيوطى (٨٤٢٨) وضعفه .
(٣) أبو داود (٢١٤٩) فى النكاح ، باب : ما يؤمر به من غض البصر، والترمذى (٢٧٧٧) فى الأدب ، باب : ما جاء فى نظرة المفاجأة ، وقال : « حسن غريب ، لا نعرفه إلا من حديث شريك » ، وأحمد (٥ / ٣٥٣) .
(٤) مسلم(٢١٥٩ / ٤٥) فى الآداب، باب : نظر الفجأة ، وأبو داود (٢١٤٨) فى النكاح ، باب : ما يؤمر به من غض البصر ،وأحمد (٤ / ٣٥٨) ، كلهم عن جرير .

بشرته بشرة المحرم فلو وقعت بشرته على بشرة المحرم من غير قصد لزحمة أو غيرها لمن يكن ذلك حرما [١] .

فصل
فى الفرق بين تكفير السيئات ومغفرة الذنوب

قد جاء فى كتاب الله تعالى ذكرهما مقترنين ، وذكر كلا منهما منفرداً عن الآخر . فالمقترنان كقوله تعالى ـ حاكيًا من عباده المؤمنين : ﴿ **رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ** (١٩٣) ﴾ [آل عمران] ، والمنفرد كقوله : ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ** (٢) ﴾ [محمد] ، وقوله فى المغفرة ﴿ **وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ** ﴾ [محمد : ١٥] ، وكقوله : ﴿ **رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا** ﴾ [آل عمران : ١٤٧] ونظائره .

فههنا أربعة أمور : ذنوب ، وسيئات ، ومغفرة ، وتكفير .

فالذنوب : المراد بها الكبائر . والمراد بالسيئات : الصغائر : وهى ما تعمل فيه الكفارة، من الخطأ وما جرى مجراه . ولهذا جعل لها التكفير . ومنه أخذت الكفارة . ولهذا لم يكن لها سلطان ولا عمل فى الكبائر فى أصح القولين . فلا تعمل فى قتل العمد. ولا فى اليمين الغموس فى ظاهر مذهب أحمد وأبى حنيفة والدليل على أن السيئات هى الصغائر ، والتكفير لها : قوله تعالى ﴿ **إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا** (٣١) ﴾ [النساء] وفى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان : مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر » [٢] .

ولفظ « المغفرة » أكمل من لفظ « التكفير » . ولهذا كان مع الكبائر ، والتكفير مع الصغائر . فإن لفظ « المغفرة » يتضمن الوقاية والحفظ ، ولفظ « التكفير » يتضمن الستر والإزالة . وعند الإفراد يدخل كل منهما فى الآخر ، كما تقدم . فقوله تعالى : ﴿**كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِم** ﴾ يتناول صغائرها وكبائرها ، ومحوها ووقاية شرها . بل التكفير المفرد يتناول

---

(١) الكلام (٤١٣ ـ ٤١٥) .

(٢) مسلم (٢٣٣ / ١٦) فى الطهارة ، باب : الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر ، والترمذى (٢١٤) فى الصلاة ، باب : ما جاء فى فضل الصلوات الخمس، وابن ماجه (٥٩٨) فى الطهاره وسننها ، باب : تحت كل شعرة جنابة .

أسوأ الأعمال، كما قال تعالى : ﴿ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا ﴾ (١) [الزمر : ٣٥] .

فصل
فى الفرق بين المنة والحجة

إن العبد بين منة من الله عليه ، وحجة منه عليه ، ولا ينفك عنهما . فالحكم الدينى متضمن لمنته وحجته ، قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِم ﴾ [آل عمران : ١٦٤] ، وقال : ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ ﴾ [الحجرات : ١٧] ، وقال : ﴿ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾ [الانعام : ١٤٩] .

والحكم الكونى أيضًا متضمن لمنته وحجته ، فإذا حكم له كونًا حكمًا مصحوبًا باتصال الحكم الدينى به فهو مِنَّة عليه . وإن لم يصحبه الدينى فهو حجة منه عليه .

وكذلك حكمه الدينى إذا اتصل به حكمه الكونى . فتوفيقه للقيام به منة منه عليه . وإن تجرد عن حكمه الكونى صار حجة منه عليه . فالمنة : باقتران أحد الحكمين بصاحبه . والحجة : فى تجرد أحدهما عن الآخر . فكل علم صحبه عمل يرضى الله سبحانه فهو منة، وإلا فهو حجة .

وكل قوة ظاهرة وباطنة صحبها تنفيذ لمرضاته وأوامره فهى منة ، وإلا فهى حجة . وكل حال صحبه تأثير فى نصرة دينه ، والدعوة إليه فهو منة منه ، وإلا فهو حجة .

وكل مال اقترن به إنفاق فى سبيل الله وطاعته ، لا لطلب الجزاء ولا الشكور ، فهو منة من الله عليه ، وإلا فهو حجة .

وكل فراغ اقترن به اشتغال بما يريد الرب من عبده فهو منة عليه ، وإلا فهو حجة .

وكل قبول فى الناس ، وتعظيم ومحبة له ، اتصل به خضوع للرب ، وذل وانكسار ، ومعرفة بعيب النفس والعمل ، وبذل النصيحة للخلق فهو منة ، وإلا فهو حجة .

وكل بصيرة وموعظة وتذكير وتعريف من تعريفات الحق سبحانه إلى العبد ، اتصل به عبرة ومزيد فى العقل ، ومعرفة فى الإيمان فهى منة ، وإلا فهى حجة .

وكل حال مع الله تعالى ، أو مقام اتصل به السير إلى الله ، وإيثار مراده على مراد العبد ، فهو منة من الله . وإن صحبه الوقوف عنده والرضا به ، وإيثار مقتضاه ، من لذة

(١) مدارج السالكين (٣١٠ ـ ٣١٢) .

النفس به وطمأنينتها إليه ، وركونها إليه ، فهو حجة من الله عليه .

فليتأمل العبد هذا الموضع العظيم الخطر ، ويميز بين مواقع المنن والمحن ، والحجج والنعم . فما أكثر ما يلتبس ذلك على خواص الناس وأرباب السلوك . ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة] (١) .

فصل
فى الفرق بين النعمة المطلقة ومطلق النعمة

إن النعمة المطلقة هى الموجبة للفلاح الدائم ، وأما مطلق النعمة : فعلى المؤمن والكافر ، فكل الخلق فى نعمه . وهذا فصل النزاع فى مسألة : هل لله على الكافر من نعمة أم لا ؟ فالنعمة المطلقة لأهل الإيمان ، ومطلق النعمة تكون للمؤمن والكافر ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم] .

والنعمة من جنس الإحسان ، بل هى الإحسان ، والرب تعالى إحسانه على البر والفاجر ، والمؤمن والكافر .

وأما الإحسان المطلق : فللذين اتقوا والذين هم محسنون(٢) .

فصل
فى الفرق بين الشك والريب

الفرق بين الشك والريب من وجوه :

أحدها: أنه يقال : شك مريب ، ولا يقال : ريب مشكك .

الثانى : أن يقال : رابنى أمر كذا ، ولا يقال : شككنى .

الثالث : أنه يقال : رابه يريبه إذا أزعجه وأقلقه ، ومنه قول النبى ﷺ وقد مر بظبى خافت فى أصل شجرة : « لا يريبه أحد » (٣) . ولا يحسن هنا لا يشككه أحد .

---

(١) مدارج السالكين (١ / ١٧٢ ، ١٧٣) .

(٢) مدارج السالكين (١ / ١٢ ، ١٣) .

(٣) النسائى (٢٨١٨) فى الحج ، باب : ما يجوز للمحرم أكله من الصيد ، ومالك ١ / ٣٥١ (٧٩) فى الحج ، باب : ما يجوز للمحرم أكله من الصيد .

الرابع : أنه لا يقال للشاك فى طلوع الشمس أو فى غروبها أو دخول الشهر أو وقت الصلاة : هو مرتاب فى ذلك ، وإن كان شاكا فيه .

الخامس :أن الريب ضد الطمأنينة واليقين فهو قلق واضطراب وانزعاج ، كما أن اليقين والطمأنينة ثبات واستقرار .

السادس : يقال : رابنى مجيئه وذهابه وفعله ، ولا يقال : شككنى ، فالشك سبب الريب ، فإنه يشك أولا فيوقعه شكه فى الريب ، فالشك مبتدأ الريب ، كما أن العلم مبتدأ اليقين [١] .

فصل
فى الفرق بين دليل مشروعية الحكم ودليل وقوعه

الفرق بين دليل مشروعية الحكم وبين دليل وقوع الحكم: فالأول متوقف على الشارع، والثانى يعلم بالحس أو الخبر أو الزيادة ، فالأول الكتاب والسنة ليس إلا ، وكل دليل سواهما يستنبط منهما ، والثانى مثل العلم بسبب الحكم وشروطه وموانعه فدليل مشروعيته يرجع فيه إلى أهل العلم بالقرآن والحديث ، ودليل وقوعه يرجع فيه إلى أهل الخبرة بتلك الأسباب والشروط والموانع .

ومن أمثلة ذلك : بيع المغيب فى الأرض من السلجم والجزر والقلقاس وغيره ، فدليل المشروعية أو منعها موقوف على الشارع لا يعلم إلا من جهته ، ودليل سبب الحكم أو شروطه أو مانعه يرجع فيه إلى أصله ، فإذا قال المانع من الصحة : هذا غرر ؛ لأنه مستور تحت الأرض ، قيل :كون هذا غررًا أو ليس بغرر يرجع إلى الواقع لا يتوقف على الشرع ، فإنه من الأمور العادية المعلومة بالحس أو العادة ، مثل كونه صحيحًا أو سقيما وكبارا أو صغارا ونحو ذلك ، فلا يستدل على وقوع أسباب الحكم بالأدلة الشرعية كما لا يستدل على شرعيته بالأدلة الحسية ، فكون الشىء مترددا بين السلامة والعطب ، وكونه مما يجهل عاقبته وتطوى مغبته أو ليس كذلك ، يعلم بالحس أو العادة ، لا يتوقف على الشرع ، ومن استدل على ذلك بالشرع فهو كمن استدل على أن هذا الشراب مسكر بالشرع،وهذا ممتنع ، بل دليل إسكاره الحس ، ودليل تحريمه الشرع .

فتأمل هذه الفائدة ونفعها ، ولهذه القاعدة عبارة أخرى وهى : أن دليل سببية الوصف

---

(١) بدائع الفوائد (٤ / ١٠٦) .

غير دليل ثبوته ، فيستدل على سببيته بالشرع وعلى ثبوته بالحس أو العقل أو العادة ، فهذا شيء وذلك شيء (١) .

فصل
فى الفرق بين المسبية والأمة فى الاستمتاع

قد ذكر الإمام أحمد ﷺ أن عبد الله بن عمر وقع فى سهمه يوم جَلولاء جارية كأن عنقها إبريق فضة ، قال عبد الله : « فما صبرت أن قبلتها والناس ينظرون » ، وبهذا احتج الإمام أحمد على جواز الاستمتاع من المسبية قبل الاستبراء بغير الوطء ، بخلاف الأمة المشتراة .

والفرق بينهما أن انفساخ الملك لا يتوهم فى المسبية ، بخلاف المشتراة ؛ فقد ينفسخ فيها الملك ، فيكون مستمتعًا بأمة غيره (٢) .

فصل فى تفاوت درجات العشق
والعشاق ثلاثة أقسام :

منهم من يعشق الجمال المطلق .

ومنهم من يعشق الجمال المقيد ، سواء طمع فى وصاله أو لا .

ومنهم من لا يعشق إلا من يطمع فى وصاله .

وبين هذه الأنواع الثلاثة تفاوت فى القوة والضعف .

فعاشق الجمال المطلق ، يهيم قلبه فى كل واد ، وله فى كل صورة جميلة مراد :

فَيَوْماً بِحزْوَى ، وَيَوْماً بِالْعَقِيقِ وبالْـ ... عذَيبِ يَوْماً ، وَيَوْماً بِالْخُلَيْصَاءِ
وَتَارَةً يَنْتَحِـــى نَجْـــداً وآوِنَــــةً ... شُعْبَ الْعَقِيقِ وَطَوْراً قَصْرَ تَيْمَاءِ

فهذا عشقه أوسع ، ولكنه غير ثابت كثير التنقل .

يَهِيمُ بِهَذَا ثُمَّ يَعْشَقُ غَيْرَهُ ... وَيَسْلاَهُمْ مِنْ وَقْتِهِ حِينَ يُصْبِحُ

وعاشق الجمال المقيد أثبت على معشوقه ، وأدوم محبة له ، ومحبته أقوى من محبة الأول ، لاجتماعهما فى واحد ، ولكن يضعفهما عدم الطمع فى الوصال ، وعاشق الجمال

(١) بدائع الفوائد (٤ / ١٥) .

(٢) الداء والدواء (٣٩٦) .

الذى يطمع فى وصاله أعقل العشاق ، وحبه أقوى ؛ لأن الطمع يحده ويقوِّيه (١) .

فصل
فى الفرق بين الشهادة والرواية

الفرق بين الشهادة والرواية : أن الرواية يعم حكمها الراوى وغيره على ممر الأزمان ، والشهادة تخص المشهود عليه وله ولا يتعداهما إلا بطريق التبعية المحضة ، فإلزام المعين يتوقع منه العداوة وحق المنفعة والتهمة الموجبة للرد ، فاحتيط لها بالعدد والذكورية وردت بالقرابة والعداوة وتطرق التهم ، ولم يفعل مثل هذا فى الرواية التى يعم حكمها ولا يخص، فلم يشترط فيها عددًا ولا ذكورية ، بل اشترط فيها ما يكون مغلبا على الظن صدق المخبر ، وهو العدالة المانعة من الكذب ، واليقظة المانعة من غلبة السهو والتخليط .ولما كان النساء ناقصات عقل ودين لم يكنَّ من أهل الشهادة ، فإذا دعت الحاجة إلى ذلك قويت المرأة بمثلها ؛ لأنه حينئذ أبعد من سهوها وغلطها ؛ لتذكير صاحبتها لها وأما اشتراط الحرية ففى غاية البعد ، ولا دليل عليه من كتاب ولا سنة ولا إجماع . وقد حكى أحمد عن أنس ابن مالك أنه قال : ما علمت أحدًا رد شهادة العبد والله تعالى يقبل شهادته على الأمم يوم القيامة ، فكيف لا يقبل شهادته على نظيره من المكلفين ، ويقبل شهادته على الرسول ﷺ فى الرواية ، فكيف لا يقبل على رجل فى درهم . ولا ينتقض هذا بالمرأة ؛ لأنها تقبل شهادتها مع مثلها لما ذكرناه ، والمانع من قبول شهادتها وحدها منتفٍ فى العبد وعلى هذه القاعدة مسائل :

أحدها : الإخبار عن رؤية هلال رمضان من اكتفى فيه بالواحد جعله رواية لعمومه للمكلفين ، فهو كالأذان ، ومن اشترط فيه العدد ألحقه بالشهادة ؛ لأنه لا يعم الأعصار ولا الأمصار بل يخص تلك السنة وذلك المصر فى أحد القولين ، وهذا ينتقض بالأذان نقضا لا محيص عنه .

وثانيها : الإخبار بالنسب بالقافة ، فمن حيث أنه خبر جزئى عن شخص جزئى يخص ولا يعم جرى مجرى الشهادة ، ومن جعله كالرواية غلط فلا مدخل لها هنا ، بل الصواب أن يقال : من حيث هو منتصب للناس انتصابا عامًا يستند إلى أمر يختص به دونهم من الأدلة والعلامات جرى مجرى الحاكم ، فقوله حكم لا رواية . ومن هذا الجرح للمحدث والشاهد ، هل يكتفى فيه بواحد إجراءً له مجرى الحكم ؟ أو لابد من اثنين إجراء له مجرى الشهادة على الخلاف ؟ وأما أن يجرى مجرى الرواية فغير صحيح ، وأما للرواية والجرح وإنما هو يجرحه باجتهاده لا بما يرويه عن غيره .

---

(١) الداء والدواء (٤٠٠ / ٤٠١) .

ومنها : الترجمة للفتوى والخط والشهادة وغيرها هل يشترط فيها التعدد ؟ مبنى على هذا ، ولكن بناؤه على الرواية والشهادة صحيح ولا مدخل للحكم هنا .

ومنها : التقويم للسلع ،من اشترط العدد رآه شهادة ، ومن لم يشترطه أجراه مجرى الحكم لا الراوية .

ومنها : القاسم ، هل يشترط تعدده على هذه القاعدة ؟ والصحيح الاكتفاء بالواحد ؛ لقصة عبد الله بن رواحة .

ومنها : تسبيح المصلى بالإمام ، هل يشترط أن يكون المسبح اثنين ؟ فيه قولان مبنيان على هذه القاعدة .

ومنها : المخبر عن نجاسة الماء ، هل يشترط تعدده ؟ فيه قولان .

ومنها : الخارص ، والصحيح فى هذا كله الاكتفاء بالواحد كالمؤذن وكالمخبر بالقبلة ، وأما تسبيح المأموم بإمامه ففيه نظر .

ومنها : المفتى يقبل واحدا اتفاقا .

ومنها : الإخبار عن قدم العيب وحدوثه عند التنازع ، والصحيح الاكتفاء فيه بالواحد كالتقويم والقائف ، وقالت المالكية لابد من اثنين ، ثم تناقضوا فقالوا : إذا لم يوجد مسلم قُبل من أهل الذمة (١) .

فصل
فى الفرق بين حقوق المالك وحقوق الملك

حقوق المالك شىء وحقوق الملك شىء آخر ، فحقوق المالك تجب لمن له على أخيه حق ، وحقوق الملك تتبع الملك ولا يراعى بها المالك . وعلى هذا ، حق الشفعة للذمى على المسلم من أوجبه جعله من حقوق الأملاك ، ومن أسقطه جعله من حقوق المالكين ، والنظر الثانى أظهر وأصح ؛لأن الشارع لم يجعل للذمى حقًا فى الطريق المشترك عند المزاحمة فقال : « إذا لقيتموهم فى طريق فاضطروهم إلى أضيقه » (٢) ، فكيف يجعل له حقا فى انتزاع الملك المختص به عند التزاحم ؟ وهذه حجة الإمام أحمد نفسه ، وأما حديث « لا شفعة لنصرانى » فاحتج به بعض أصحابه ، وهو أعلم من أن يحتج به، فإنه من كلام بعض التابعين (٣) .

---

(١) بدائع الفوائد (١ / ٥ ، ٦) .

(٢) أبو داود (٥٢٠٢) فى الأدب ، باب : فى السلام على أهل الذمة ، وأحمد ٢ / ٢٦٣ ، ٤٥٩ ، ٥٢٥ .

(٣) بدائع الفوائد (١ / ٢) .

فصل
فى الفرق بين تمليك المنفعة وتمليك الانتفاع

تمليك المنفعة شىء وتمليك الانتفاع شىء آخر ، فالأول يملك به الانتفاع والمعاوضة ، والثانى يملك به الانتفاع دون المعاوضة ، وعليها إجارة ما استأجره ؛ لأنه ملك المنفعة ، بخلاف المعاوضة على البضع فإنه لم يملكه وإنما ملك أن ينتفع به ، وكذلك إجارة ما ملك أن ينتفع به من الحقوق كالجلوس بالرحاب وبيوت المدارس والرُّبط ونحو ذلك لا يملكها ؛ لأنه لم يملك المنفعة ، وإنما ملك الانتفاع . وعلى هذا الخلاف تُخَرَّجُ إجارة المستعار ، فمن منعها ـ كالشافعى وأحمد ومن تبعهما قال : لم يملك المنفعة ، وإنما ملك الانتفاع ، ومَن جوزها ـ كمالك ومن تبعه قال : هو قد مَلك المنفعة ؛ ولهذا يلزم عنده بالتوقيت ، ولو أطلقها لزمت فى مدة ينتفع بمثلها عرفا فليس له الرجوع قبلها (١) .

فصل
فى الفرق بين ثمرة الطاعة وثمرة المعصية

كل ما تولَّد من الطاعة فهو زيادة لصاحبها وقربة ، وكل ما تولَّد عن المعصية فهو خسران لصاحبه وبُعد ، قال تعالى : ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١)** ﴾ [التوبة] .

فأخبر ـ سبحانه ـ فى الآية الأولى : أن المتولد عن طاعتهم وأفعالهم يكتب لهم به عمل صالح .

وأخبر فى الثانية : أن أعمالهم الصالحة التى باشروها تكتب لهم أنفسها ، والفرق بينهما : أن الأول ليس من فعلهم ، وإنما تولد عنه ، فكتب لهم به عمل صالح ، والثانى

(١) بدائع الفوائد (١ / ٣) .

نفس أعمالهم فكتب لهم [١] .

فصل
فى الفرق بين اللذة المذمومة واللذة المحمودة

اللذة والسرور والفرح أمر مطلوب فى نفسه ، بل هو مقصود كل حى وعاقل ، وإذا كانت اللذة مطلوبة لنفسها فهى تذم إذا أعقبت ألماً أعظم منها ، أو منعت لذة خيراً منها وأجلَّ ، فكيف إذا أعقبت أعظم الحسرات ، وفَوَّتَتْ أعظم اللذات والمسرات ؟ وتحمد إذا أعانت على لذة عظيمة دائمة مستقرة لا تنغيص فيها ولا نكد بوجه ما ، وهى لذة الآخرة ونعيمها وطيب العيش فيها ، قال الله تعالى : ﴿ **بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾** ﴾ [الاعلى] . وقال السحرة لفرعون لما آمنوا : ﴿ **فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾** ﴾ [طه] [٢] .

فصل
فى الفرق بين العلم والمعرفة

والفرق بين العلم والمعرفة لفظا ومعنى . أما اللفظ : ففعل المعرفة يقع على مفعول واحد . تقول : عرفت الدار ، وعرفت زيداً . قال تعالى ﴿ **فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ** ﴾ [يوسف : ٥٨] ، وقال ﴿ **يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُم** ﴾ [الانعام : ٢٠] وفعل « العلم » يقتضى مفعولين ، كقوله تعالى : ﴿ **فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ** ﴾ [الممتحنة: ١٠] وإن وقع على مفعول واحد ، كان بمعنى المعرفة، كقوله ﴿ **وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ** ﴾ [الانفال : ٦٠] وأما الفرق المعنوى فمن وجوه :

أحدها : أن « المعرفة » تتعلق بذات الشىء ، و« العلم » يتعلق بأحواله .

فتقول : عرفت أباك ، وعلمته صالحًا عالمًا . ولذلك جاء الأمر فى القرآن بالعلم دون

---

(١) الداء والدواء (٣٤٤ ، ٣٤٥) .

(٢) الداء والدواء (٣٨٦) .

المعرفة ، كقوله تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [محمد : ١٧] وقوله : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [المائدة : ٩٨] ، وقوله : ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ [هود : ١٤] .

فالمعرفة : حضور صورة الشيء ومثاله العلمى فى النفس ، والعلم : حضور أحواله وصفاته ، ونسبتها إليه . فالمعرفة : تشبه التصور . والعلم : يشبه التصديق .

الثانى : أن « المعرفة » ـ فى الغالب ـ تكون لما غاب عن القلب بعد إدراكه .

فإذا أدركه قيل : عرفه ، أو تكون لما وصف له بصفات قامت فى نفسه . فإذا رآه وعلم أنه الموصوف بها ، قيل : عرفه ، قال الله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُم ﴾ [يونس : ٤٥] ، وقال تعالى: ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يوسف : ٥٨] ، وقال ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ ﴾ الانعام : ٢٠] لما كانت صفاته معلومة عندهم ، فرأوه : عرفوه بتلك الصفات . وفى الحديث الصحيح : « إن الله تعالى يقول لآخر أهل الجنة دخولا : أتعرف الزمان الذى كنت فيه ؟ فيقول : نعم . فيقول : تَمنَّ . فيتمنى على ربه »(١) .

وقال تعالى : ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة : ٨٩] فالمعرفة : تشبه الذكر للشيء . وهو حضور ما كان غائبًا عن الذكر ؛ ولهذا كان ضد المعرفة : الإنكار . وضد العلم : الجهل ، قال تعالى : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل : ٨٣] ويقال : عرف الحق فأقر به . وعرفه فأنكره .

الثالث : من الفرق : أن « المعرفة » تفيد تمييز المعروف عن غيره ، و « العلم » يفيد تمييز ما يوصف به عن غيره . وهذا الفرق غير الأول ، فإن ذاك يرجع إلى إدراك الذات وإدراك صفاتها . وهذا يرجع إلى تخليص الذات من غيرها ، وتخليص صفاتها من صفات غيرها .

الرابع : أنك إذا قلت : علمت زيداً ، لم يفد المخاطب شيئًا ؛ لأنه ينتظر بعد أن تخبره على أى حال علمته؟فإذا قلت: كريماً أو شجاعًا ، حصلت له الفائدة . وإذا قلت : عرفت زيداً ،استفاد المخاطب : أنك أثبته وميزته عن غيره . ولم يبق منتظراً لشيء آخر . وهذا الفرق فى التحقيق إيضاح للفرق الذى قبله .

---

(١) مسلم (١٨٦ / ٣٠٩) فى الإيمان ، باب : آخر أهل النار خروجًا ، والترمذى (٢٥٩٥) فى صفة جهنم ، باب: آخر أهل النار خروجًا .

الخامس : وهو فرق العسكرى فى فروقه ـ وفروق غيره : أن « المعرفة » علم بعين الشىء مفصلا عما سواه ، بخلاف « العلم » فإنه قد يتعلق بالشىء مجملاً . وهذا يشبه فرق صاحب المنازل ، فإنه قال : « المعرفة إحاطة بعين الشىء كما هو » وعلى هذا الحد : فلا يتصور أن يُعرف الله البتة . ويستحيل عليه هذا الباب بالكلية ، فإن الله ـ سبحانه ـ لا يحاط به علمًا ، ولا معرفة ولا رؤية . فهو أكبر من ذلك وأجل وأعظم ، قال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [طه] بل حقيقة هذا الحد: انتفاء تعلق المعرفة بأكبر المخلوقات حتى بأظهرها ، وهو الشمس والقمر ، بل لا يصح أن يعرف أحد نفسه وذاته البتة .

والفرق بين « العلم » و « المعرفة » عند أهل هذا الشأن : أن « المعرفة » عندهم هى العلم الذى يقوم العالم بموجبه ومقتضاه ، فلا يطلقون المعرفة على مدلول العلم وحده ، بل لا يصفون بالمعرفة إلا من كان عالمًا بالله ، وبالطريق الموصل إلى الله ، وبآفاتها وقواطعها (١) .

فصل
فى الفرق بين البدعة واتباع الهوى

إنه ـ سبحانه وتعالى ـ جمع بين الاستمتاع بالخلاق وبين الخوض بالباطل (٢) ؛ لأن فساد الدين إما أن يقع بالاعتقاد الباطل والتكلم به ، وهو الخوض ، أو يقع فى العمل بخلاف الحق والصواب ، وهو الاستمتاع بالخلاق ، فالأول : البدع ، والثانى : اتباع الهوى ، وهذان هما أصل كل شر وفتنة وبلاء ، وبهما كذبت الرسل وعُصى الربُّ ودُخلت النارُ ، وحَلت العقوبات ، فالأول من جهة الشبهات ، والثانى من جهة الشهوات ، ولهذا كان السلف يقولون : احذروا من الناس صنفين ؛ صاحب هوى فتنُته هواه ، وصاحب دنيا أعجبته دنياه .

وكانوا يقولون : احذروا فتنة العالم الفاجر ، والعابد الجاهل ، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون ، فهذا يشبه المغضوب عليهم الذين يعلمون الحق ، ويعملون بخلافه ، وهذا يشبه الضالين الذين يعملون بغير علم .

---

(١) مدارج السالكين (٣ / ٣٣٥ ـ ٣٣٧) .

(٢) يقصد قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ﴾ [التوبة : ٦٩].

وفى صفة الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ عن الدنيا : ما كان أصبره ، وبالماضين ما كان أشبهه . أتته البدع فنفاها ، والدنيا فأباها ، وهذه حال أئمة المتقين الذين وصفهم الله فى كتابه بقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [السجدة]، فبالصبر تترك الشهوات ، وباليقين تدفع الشبهات، كما قال تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ آخر العصر ، وقوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [ص] وفى بعض المراسيل : « إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات ، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات »(١) .

فقوله تعالى : ﴿ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ ﴾ إشارة إلى اتباع الشهوات وهو داء العصاة .

وقوله : ﴿ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ﴾ إشارة إلى الشبهات ، وهو داء المبتدعة وأهل الأهواء والخصومات ، وكثيراً ما يجتمعان ، فقلَّ من تجده فاسد الاعتقاد إلا وفساد اعتقاده يظهر فى عمله (٢) .

فصل
فى الفرق بين العبد الرسول والملك الرسول

إن الله ـ سبحانه ـ خيَّره ﷺ بين أن يكون عبداً رسولاً ، وبين أن يكون ملكًا رسولاً، فاختار أن يكون عبداً رسولاً .

والفرق بينهما أن العبدَ الرسولَ لا يتصرَّف إلا بأمر سيده ومُرْسِله ، والملك الرسول له أن يُعطِىَ مَن يشاء ، ويمنعُ من يشاء ، كما قال تعالى للملك الرسول سليمان : ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ ﴾ [ص] أى : أعط مَن شئت ، وامنع من شئت ، لا نحاسبك ، وهذه المرتبة هى التى عرضت على نبينا ﷺ فرغب عنها إلى ما هو أعلى منها، وهى مرتبة العبودية المحضة التى تصرُّف صاحبها فيها مقصور على أمر السيد فى كل دقيق وجليل (٣) .

---

(١) تذكرة الموضوعات للفتنى ص ١٨٨ .
(٢) إعلام الموقعين (١ / ١٤٨) .
(٣) زاد المعاد (٥ / ٨٣ ، ٨٤) .

فصل
فى الفرق بين هبة المرأة ليلتها لضرتها ، وهبتها لزوجها

إن للمرأة أن تهب ليلتها لضرتها ، فلا يجوز له جعلها لغير الموهوبة ، وإن وهبتها للزوج، فله جعلها لمن شاء منهن ، والفرق بينهما أن الليلة حق للمرأة ، فإذا أسقطتها ، وجعلتها لضرتها ، تعينت لها ، وإذا جعلتها للزوج ،جعلها لمن شاء من نسائه [١] .

فصل
فى الفرق بين قول الزوج « اختارى »
وبين « أمرك بيدك »

فرق مالك بين « اختارى » وبين « أمرك بيدك » ، فجعل « أمـرك بيدك » تمليكا ، و« اختارى » تخييراً لا تمليكا .

قال أصحابه : وهو توكيل [٢] .

فى الفرق بين تعليق الطلاق وتعليق العتق

فإن قيل : فما الفرق بين تعليق الطلاق وتعليق العتق ؟ فإنه لو قال : إن ملكت فلانًا فهو حر ، صحَّ التعليق وعتق بالملك ؟ قيل : فى تعليق العتق قولان ، وهما روايتان عن أحمد كما عنه روايتان فى تعليق الطلاق ، والصحيح من مذهبه الذى عليه أكثر نصوصه وعليه أصحابه : صحة تعليق العتق دون الطلاق .

والفرق بينهما : أن العتق له قوة وسراية ولا يعتمد نفوذ الملك ، فإنه ينفذ فى ملك الغير، ويصح أن يكون الملك سبباً لزواله بالعتق عقلاً وشرعًا ، كما يزول ملكه بالعتق عن ذى رحمه المحرم بشرائه ، وكما لو اشترى عبداً ليعتقه فى كفارة أو نذر أو اشتراه بشرط العتق ، وكل هذا يشرع فيه جعل الملك سبباً للعتق ، فإنه قربة محبوبة لله تعالى ، فشرع الله ـ سبحانه ـ التوسل إليه بكل وسيلة مقضية إلى محبوبه ، وليس كذلك الطلاق فإنه بغيض إلى الله ، وهو أبغض الحلال إليه ، ولم يجعل ملك البضع بالنكاح سبباً لإزالته

---

(١) زاد المعاد (٥ / ١٥٢) .

(٢) زاد المعاد (٥ / ٢٨٨) .

البتة .

وفرق ثان : أن تعليق العتق بالملك من باب نذر القرب والطاعات والتبرر، كقوله : لئن أتانى الله من فضله لأتصدقن بكذا وكذا . فإذا وجد الشرط لزمه ما علقه به من الطاعة المقصودة ، فهذا لون وتعليق الطلاق على الملك لون آخر (١) .

فصل
فى الفرق بين الشجاعة والقوة

وكثير من الناس تشتبه عليه الشجاعة بالقوة ، وهما متغايران ، فإن الشجاعة هى ثبات القلب عند النوازل وإن كان ضعيف البطش (٢) .

فصل
فى الفرق بين القاضى والمفتى

القاضى والمفتى مشتركان فى أن كلا منهما يجب عليه إظهار حكم الشرع فى الواقعة ، ويتميز الحاكم بالإلزام به وإمضائه ، فشروط الحاكم ترجع إلى شروط الشاهد والمفتى والوالى، فهو مخبر عن حكم الشارع بعلمه مقبول بعدالته منفذ بقدرته(٣) .

فصل
فى الفرق بين العائن والحاسد

العائن والحاسد يشتركان فى شىء ويفترقان فى شىء .

فيشتركان فى أن كل واحد منهما تتكيف نفسه وتتوجه نحو من يريد أذاه ، فالعائن تتكيف نفسه عند مقابلة المعين ومعاينته ، والحاسد يحصل له ذلك عند غيبة المحسود وحضوره أيضًا .

ويفترقان فى أن العائن قد يصيب من لا يحسده من جماد أو حيوان أو زرع أو مال ،

---

(١) زاد المعاد (٥ / ٢١٧ ، ٢١٨) .
(٢) الفروسية (٣٢) .
(٣) بدائع الفوائد (٤ / ٢٢) .

وإن كان لا يكاد ينفك من حسد صاحبه وربما أصابت عينه نفسه ؛ فإن رؤيته للشيء رؤية تعجب وتحديق مع تكيف نفسه بتلك الكيفية تؤثر فى المعين [١] .

فصل
فى الفرق بين الجنب والحائض

الحائض إذا انقطع دمها فهى كالجنب فيما يجب عليها ويحرم ، فيصح صومها وغسلها وتجب عليها الصلاة ، ولها أن تتوضأ وتجلس فى المسجد ، ويجوز طلاقها على أحد القولين إلا فى مسألة واحدة فإنها تخالف الجنب فيها وهى : جواز وطئها ؛ فإنه يتوقف على الاغتسال .

والفرق بينها وبين الجنب فى ذلك أن حدث الحيض أوجب تحريم الوطء وحدثه لا يزول إلا بالغسل ، بخلاف حدث الجنابة فإنه لا يوجب تحريم الوطء ، ولا يمكن ذلك فيه البتة . واستثنى بعض الفقهاء مسألة أخرى وهى نقض الشعر للغسل ، فإنه يجب على الحائض فى أحد القولين دون الجنب ، ولا حاجة إلى هذا الاستثناء ، فتأمله [٢] .

فصل
فى الفرق بين قتل تارك الصلاة وبين قتل الزانى والمحارب

الفرق بين قتل هذا [٣] حدًا ، وقتل الزانى والمحارب : أن قتل تارك الصلاة ، إنما هو على إصراره على الترك فى المستقبل ، وعلى الترك فى الماضى ، بخلاف المقتول فى الحد ، فإن سبب قتله الجناية المتقدمة على الحد ؛ لأنه لم يبق له سبيل إلى تداركها ، وهذا له سبيل الاستدراك بفعلها بعد خروج وقتها عند الأئمة الأربعة وغيرهم ، ومن يقول من أصحاب أحمد : لا سبيل له إلا الاستدراك ـ كما هو قول طائفة من السلف ـ يقول : القتل هاهنا على ترك ، فيزول الترك بالفعل : فأما الزنا والمحاربة ، فالقتل فيهما على فعل، والفعل الذى مضى لا يزول بالترك [٤] .

---

(١) بدائع الفوائد (٢ / ٢٣١) .
(٢) بدائع الفوائد (٣ / ٢٥٧) .
(٣) أى تارك الصلاة .
(٤) كتاب الصلاة (٢٠) .

فصل
فى الفرق بين الصبر والتصبر والاصطبار والمصابرة

الفرق بين هذه الأسماء بحسب حال العبد فى نفسه وحاله مع غيره ، فإن حبس نفسه ومنعها عن إجابة داعى ما لا يحسن إن كان خلقًا له وملكة سمى صبراً ، وإن كان بتكلف وتمرن وتجرع لمرارته سمى تصبراً ، كما يدل عليه هذا البناء لغة ، فإنه موضوع للتكلف : كالتحلم والتشجع والتكرم والتحمل ونحوها .

وإذا تكلفه العبد واستدعاه صار سجية له ، كما فى الحديث عن النبى ﷺ أنه قال : «ومن يتصبر يُصبره الله » (١) ، وكذلك العبد يتكلف التعفف حتى يصير التعفف له سجية، كذلك سائر الأخلاق .

وهى مسألة اختلف فيها الناس ، هل يمكن اكتساب واحد منها أم التخلق لا يصير خلقاً أبداً ؟ كما قال الشاعر :

يـراد مـن القـلب نسيانكـم وتأبى الطباع عـلى الـنـاقل

وقال آخر :

يـا أيهـا المتحلى غير شيمته إن التخلق يأتى دونـه الخـلق

فقبح التطبع شيمة المطبوع

قالوا : وقد فرغ الله ـ سبحانه ـ من الخفق والخلق والرزق والأجل .

وقالت طائفة أخرى : بل يمكن اكتساب الخلق كما يكتسب العقل والحلم والجود والسخاء والشجاعة والوجود شاهد بذلك .

وقالوا : والمزاولات تعطى الملكات ، ومعنى هذا : أن من زاول شيئاً واعتاده وتمرن عليه صار ملكة له وسجية وطبيعة . قالوا : والعوائد تنقل الطبائع ، فلا يزال العبد يتكلف التصبر حتى يصير الصبر له سجية ، كما أنه لا يزال يتكلف الحلم والوقار والسكينة والثبات حتى تصير له أخلاقاً بمنزلة الطبائع .

(١) البخارى (١٤٦٩) فى الزكاة ، باب : الاستعفاف عن المسألة ، ومسلم (١٠٥٣ / ١٢٤) فى الزكاة ، باب : فضل التعفف والصبر .

قالوا : وقد جعل الله ـ سبحانه ـ فى الإنسان قوة القبول والتعلم فنقل الطبائع عن مقتضياتها غير مستحيل ، غير أن هذا الانتقال قد يكون ضعيفاً فيعود العبد إلى طبعه بأدنى باعث ، وقد يكون قويًا ولكن لم ينقل الطبع ، فقد يعود إلى طبعه إذا قوى الباعث واشتد، وقد يستحكم الانتقال بحيث يستحدث صاحبه طبعاً ثانياً ، فهذا لا يكاد يعود إلى طبعه الذى انتقل عنه .

وأما الاصطبار : فهو أبلغ من التصبر ، فإنه افتعال للصبر بمنزلة الاكتساب ، فالتصبر مبدأ الاصطبار ،كما أن التكسب مقدمة الاكتساب ، فلا يزال التصبر يتكرر حتى يصير اصطباراً .

وأما المصابرة : فهى مقاومة الخصم فى ميدان الصبر ، فإنها مفاعلة تستدعى وقوعها بين اثنين كالمشاتمة والمضاربة ، قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران] ، فأمرهم بالصبر وهو حال الصابر فى نفسه ، والمصابرة وهى حاله فى الصبر مع خصمه ، والمرابطة وهى الثبات واللزوم والإقامة على الصبر والمصابرة ، فقد يصبر العبد ولا يصابر وقد يصابر ولا يرابط ، وقد يصبر ويصابر ويرابط من غير تعبد بالتقوى ، فأخبر ـ سبحانه ـ أن ملاك ذلك كله التقوى ، وأن الفلاح موقوف عليها فقال : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران] ، فالمرابطة كما أنها لزوم الثغر الذى يخاف هجوم العدو منه فى الظاهر ، فهى لزوم ثغر القلب ، لئلا يدخل منه الهوى والشيطان فيزيله عن مملكته (١).

فصل
فى الفرق بين الأُمَّة والإمام

الفرق بين الأمة والإمام من وجهين :

- **أحدهما** : أن « الإمام » كل ما يؤتم به ، سواء كان بقصده وشعوره أو لا ، ومنه سمى الطريق إماماً ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾ [الحجر] أى بطريق واضح لا يخفى على السالك ، ولا يسمى الطريق أمة .

(١) عدة الصابرين (٣٦ ، ٣٧) .

الثانى:أن « الأمة » فيه زيادة معنى وهو الذى جمع صفات الكمال من العلم والعمل ، بحيث بقى فيها فردًا وحده ، فهو الجامع لخصال تفرقت فى غيره ، فكأنه باين غيره باجتماعها فيه وتفرقها أو عدمها فى غيره . ولفظ الأمة يشعر بهذا المعنى لما فيه من الميم المضعفة الدالة على الضم بمخرجها وتكريرها ، وكذلك ضم أوله ، فإن الضمة من الواو ومخرجها ينضم عند النطق بها ، وأتى بالتاء الدالة على الوحدة كالغرفة واللقمة ، ومنه الحديث : « إن زيد بن عمرو بن نفيل يبعث يوم القيامة أمة وحده » (١) فالضم والاجتماع لازم لمعنى الأمة ، ومنه سميت الأمة التى هى آحاد الأمم ؛ لأنهم الناس المجتمعون على دين واحد أو فى عصر واحد (٢) .

فصل
فى الفرق بين التفكر والتذكر

قال الحسن : ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر ، وبالتفكر على التذكر ، ويناطقون القلوب حتى نطقت ، فإذا لها أسماع وأبصار .

فاعلم أن التفكر طلب القلب ما ليس بحاصل من العلوم من أمر هو حاصل منها ، هذا حقيقته ، فإنه لو لم يكن ثم مراد يكون مورداً للفكر استحال الفكر ؛ لأن الفكر بغير متعلق متفكر فيه محال ، وتلك المواد هى الأمور الحاصلة ، ولو كان المطلوب بها حاصلاً عنده لم يتفكر فيه .

فإذا عرف هذا فالمتفكر ينتقل من المقدمات والمبادئ التى عنده إلى المطلوب الذى يريده، فإذا ظفر به وتحصل له تذكر به وأبصر مواقع الفعل والترك وما ينبغى إيثاره وما ينبغى اجتنابه ، فالتذكر هو مقصود التفكر وثمرته ، فإذا تذكر عاد بتذكره على تفكره فاستخرج ما لم يكن حاصلاً عنده ، فهو لا يزال يكرر بتفكره على تذكره ، وبتذكره على تفكره ما دام عاقلاً ؛ لأن العلم والإرادة لا يقفان على حد بل هو دائماً سائر بين العلم والإرادة ، وإذا عرفت معنى كون آيات الرب تبارك وتعالى تبصرة وذكرى يتبصر بها من عمى القلب ، ويتذكر بها من غفلته ، فإن المضاد للعلم إما عمى القلب وزواله بالتبصر وإما غفلته وزواله بالتذكر (٣) .

---

(١) أحمد ١ / ١٨٩ ، ١٩٠ ، وقال الشيخ أحمد شاكر (١٦٤٨) : « إسناده صحيح » .
(٢) مفتاح دار السعادة (١ / ١٧٤) .
(٣) مفتاح دار السعادة (١ / ٢١٣) .

فصل
فى الفرق بين فعله سبحانه وبين فعل عباده الذى هو مفعوله

فرق بين فعله ـ سبحانه ـ الذى هو فعله وبين فعل عباده الذى هو مفعوله ، فمحبته تعالى وكراهته للأول توجب وقوعه وامتناعه ، وأما محبته وكراهته للثانى فلا توجب وقوعه ولا امتناعه ، فإنه يحب الطاعة والإيمان من عباده كلهم ، وإن لم تكن محبته موجبة لطاعتهم وإيمانهم جميعًا ، إذ لم يحب فعله الذى هو إعانتهم وتوفيقهم وخلق ذلك لهم ، ولو أحب ذلك لاستلزم طاعتهم وإيمانهم ، ويبغض معاصيهم وكفرهم وفسوقهم ، ولم تكن هذه الكراهة والبغض مانعة من وقوع ذلك منهم ، إذ لم يكره ـ سبحانه ـ خذلانهم وإضلالهم لما له فى ذلك من الغايات المحبوبة التى فواتها يستلزم فوات ما هو أحب إليه من إيمانهم وطاعتهم .

فالرب تعالى يحب من عباده الطاعة والإيمان ، ويحب مع ذلك من تضرعهم وتذللهم وتوبتهم واستغفارهم ومن توبته ومغفرته وعفوه وصفحه وتجاوزه ما هو ملزوم لمعاصيهم وذنوبهم ، ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع ، وإذا عقل هذا فى حق المذنبين فيعقل مثله فى حق الكفار وإن خلقهم ، وإضلالهم لازم لأمور محبوبة للرب تعالى لم تكن تحصل إلا بوجود لازمها ، إذ وجود الملزوم بدون لازمه ممتنع ، فكانت تلك الأمور المحبوبة والغايات المحمودة متوقفة على خلقهم وإضلالهم توقف الملزوم على لازمه .

ونكتة المسألة : الفرق بين ما هو فعل له تستلزم محبته وقوعه منه ، وبين ما هو مفعول له لا تستلزم محبته له وقوعه من عبده ، وإذا عرف هذا فالظلم والكفر والفسوق والعصيان وأنواع الشرور واقعة فى مفعولاته المنفصلة التى لا يتصف بها دون أفعاله القائمة به ، ومن انكشف له لهذا المقام فهم معنى قوله ﷺ : « والشر ليس إليك »[1] . فهذا الفرق العظيم يزيل أكثر الشبه التى حارت لها عقول كثير من الناس فى هذا الباب ، وهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

فما فى مخلوقاته ومفعولاته تعالى من الظلم والشر فهو بالنسبة إلى فاعله المكلف الذى قام به الفعل ، كما أنه بالنسبة إليه يكون زنا وسرقة وعدواناً وأكلاً وشرباً ونكاحاً ، فهو

---

(١) مسلم (٧٧١ / ٢٠١) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب : الدعاء فى صلاة الليل وقيامه ، والنسائى (٨٩٧) فى الافتتاح ، باب : الذكر والدعاء بين التكبير والقراءة .

الزانى السارق الآكل الناكح والله خالق كل فاعل وفعله ، وليست نسبة هذه الأفعال إلى خالقها كنسبتها إلى فاعلها الذى قامت به ، كما أن نسبة صفات المخلوقين إليه كطوله وقصره وحسنه وقبحه وشكله ولونه ليست كنسبتها إلى خالقها فيه . فتأمل هذا الموضع ، وأعط الفرق حقه وفرق بين النسبتين ، فكما أن صفات المخلوق ليست صفات لله بوجه وإن كان هو خالقها ، فكذلك أفعاله ليست أفعالاً لله تعالى ولا إليه وإن كان هو خالقها[١] .

فصل
فى الفرق بين الفسق والمعصية

الفسق أخص بارتكاب النهى ، ولهذا يطلق عليه كثيراً ، كقوله تعالى ﴿ **وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُم** ﴾ [البقرة : ٢٨٢] ، والمعصية أخص بمخالفة الأمر .

ويطلق كل منها على صاحبه ، كقوله تعالى : ﴿ **إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ** ﴾ [الكهف : ٥٠] ، فسمى مخالفته للأمر فسقا ، وقال : ﴿ **وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى** ﴾ [طه : ١٢١] ، فسمى ارتكابه للنهى معصية .

فهذا عند الإفراد ، فإذا اقترنا كان أحدهما لمخالفة الأمر ، والآخر لمخالفة النهى [٢] .

فصل
فى الفرق بين الجد والعزم

الفرق بين الجد والعزم : أن « العزم » صدق الإرادة واستجماعها ، « والجد » صدق العمل وبذل الجهد فيه [٣] .

فصل
فى الفرق بين الحزن والهم

الفرق بينهما : أن المكروه الذى يرد على القلب ، إن كان لما يستقبل : أورثه الهم ، وإن كان لما مضى : أورثه الحزن . وكلاهما مضعف للقلب عن السير ، مُقَتِّرٌ للعزم [٤] .

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢ / ١١١)
(٢) مدارج السالكين (١ / ٣٦٢) .
(٣) مدارج السالكين (١ / ٤٧٠) .
(٤) مدارج السالكين (١ / ٥٠٦) .

فصل
فى الفرق بين الكفر الأكبر والأصغر

الكفر نوعان: كفر أكبر ، وكفر أصغر. فالكفر الأكبر : هو الموجب للخلود فى النار . والأصغر : موجب لاستحقاق الوعيد دون الخلود [١] .

فصل
فى الفرق بين مفسدة العشق ومفسدة الفاحشة

لا نسبة بين مفسدة هذا الأمر العظيم [٢] ومفسدة الفاحشة ؛ فإن تلك ذنب كبير لفاعله حكم أمثاله ، ومفسدة هذا العشق مفسدة الشرك ،وكان بعض الشيوخ من العارفين يقول : لأن أُبْتَلَى بالفاحشة مع تلك الصورة أحبُّ إلىَّ من أن أبتلى فيها بعشق يتعبد لها قلبى ويشغله عن الله [٣] .

فصل
فى الفرق بين الشح والبخل

الفرق بين الشح والبخل : أن الشح : هو شدة الحرص على الشىء ، والإحفاء فى طلبه ، والاستقصاء فى تحصيله ، وجشع النفس عليه . والبخل : منع إنفاقه بعد حصوله، وحبه وإمساكه ، فهو شحيح قبل حصوله بخيل بعد حصوله فالبخل ثمرة الشح ، والشح يدعو إلى البخل ، والشح كامن فى النفس ، فمن بخل فقد أطاع شحه ، ومن لم يبخل فقد عصى شحه ووُقِى شره ، وذلك هو المفلح : ﴿ **وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [الحشر : ٩ ، التغابن : ١٦] [٤] .

فصل
فى الفرق بين الإيثار والأثرة

الفرق بين الإيثار والأثرة : أن الإيثار تخصيص الغير بما تريده لنفسك ، والأثرة

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٣٣٥) .
(٢) أى العشق .
(٣) الداء والدواء (٣٥٥) .
(٤) الوابل الصيب (٦٤) .

اختصاصك به على الغير ، وفى الحديث : بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة فى عسرنا ويسرنا ، ومنشطنا ومكرهنا ، وأثرة علينا (١) (٢) .

فصل
فى الفرق بين التوقى والحذر

التوقى والحذر متقاربان ، إلا أن « التوقى » فعل الجوارح و « الحذر » فعل القلب . فقد يتوقى العبد الشىء لا على وجه الحذر والخوف ولكن لأمور أخرى : من إظهار نزاهة وعزة وتصوف . أو اعتراض آخر ،كتوقى الذين لا يؤمنون بمعاد ولا جنة ولا نار ما يتوقونه من الفواحش والدناءة تصوناً عنها ورغبة بنفوسهم عن مواقعتها وطلبًا للمحمدة ونحو ذلك(٣) .

فصل
فى الفرق بين الرغبة والرجاء

الفرق بين الرغبة والرجاء : أن الرجاء طمع والرغبة طلب ، فهى ثمرة الرجاء فإنه إذا رجا الشىء طلبه،والرغبة من الرجاء كالهرب من الخوف، فمن رجا شيئا طلبه ورغب فيه ، ومن خاف شيئاً هرب منه (٤) .

فصل
فى الفرق بين الواثق بالله والمغرور به

الفرق بينهما : أن الواثق بالله قد فعل ما أمره الله به ووثق بالله فى طلوع ثمرته وتنميتها وتزكيتها ، كغارس الشجرة وباذر الأرض ، والمغتر العاجز : قد فرط فيما أمر به ، وزعم أنه واثق بالله ، والثقة إنما تصح بعد بذل المجهود (٥).

---

(١) البخارى (٧١٩٩) فى الأحكام ، باب : كيف يبايع الإمام الناس ، ومسلم (٩ ـ ١٧٠ / ٤١) فى الإمارة ، باب : وجوب طاعة الأمراء فى غير معصية وتحريمها فى معصية .

(٢) طريق الهجرتين (٢٩٨) .
(٣) مدارج السالكين (٢ / ٢٣) .
(٤) مدارج السالكين (٢ / ٥٥) .
(٥) مدارج السالكين (٢ / ١٢٤) .

فصل
فى الفرق بين الحمد والشكر

تكلم الناس فى الفرق بين « الحمد » و « الشكر » أيهما أعلى وأفضل ؟ وفى الحديث « الحمد رأس الشكر ، فمن لم يحمد الله لم يشكره » (١) .

والفرق بينهما : أن « الشكر » أعم من جهة أنواعه وأسبابه وأخص من جهة متعلقاته ، و« الحمد » أعم من جهة المتعلقات وأخص من جهة الأسباب .

ومعنى هذا : أن الشكر يكون بالقلب خضوعاً واستكانة ، وباللسان ثناء واعترافاً ، وبالجوارح طاعة وانقياداً ، ومتعلقه : النعم ، دون الأوصاف الذاتية ، فلا يقال : شكرنا الله على حياته وسمعه وبصره وعلمه وهو المحمود عليها ، كما هو محمود على إحسانه وعدله . والشكر يكون على الإحسان والنعم .

فكل ما يتعلق به الشكر يتعلق به الحمد من غير عكس ، وكل ما يقع به الحمد يقع به الشكر من غير عكس ، فإن الشكر يقع بالجوارح ، والحمد يقع بالقلب واللسان (٢) .

فصل
فى الفرق بين ولاية النعت وولاية العين والذات

الفرق بين ولاية « النعت » وولاية « العين والذات » : أن النعت صفة ومن شاهد الصفة ، فلابد أن يشاهد متعلقاتها ، فإن النظر فى متعلقاتها يكسبه التعظيم للمتصف بها ، فإن من شاهد العلم القديم الأزلى متعلقاً بسائر المعلومات التى لا تتناهى ـ من واجب وممكن ومستحيل ـ ومن شاهد الإرادة الموجبة لسائر الإرادات على تنوعها ـ من الأفعال والأعيان والحركات والأوصاف التى لا تتناهى ـ وشاهد القدرة التى هى كذلك وشاهد صفة الكلام الذى لو أن البحر يمده من بعده سبعة أبحر وأشجار العالم كلها أقلام يكتب بها كلام الرب جل جلاله لفنيت البحار ونفدت الأقلام ، وكلام الله عز وجل لا ينفد ولا يفنى ـ فمن شاهد الصفات كذلك وجال قلبه فى عظمتها فهو مشغول بالصفات ، ومتفرق قلبه فى

---

(١) البيهقى فى شعب الإيمان (٤٣٣٥) ، ومصنف عبد الرزاق (١٩٥٧٤) .
(٢) مدارج السالكين (٢ / ٢٤٦) .

متعلقاتها وتنوعها فى أنفسها . بخلاف من قصر نظره على نفس الذات وشاهد قدمها وبقاءها ، واستغرق قلبه فى عظمة تلك الذات بقطع النظر عن صفاتها ، فهو مشاهد للعين والأول مشاهد للصفات ، فالأول فى فرق وهذا فى جمع . فمن استغرق قلبه فى هذا المشهد استحق اسم « المشاهد » ، ووصف « المشاهدة » عند القوم إذا غاب عن إدراك رسمه وكل ما فيه من علم أو عمل أو حال (١) .

فصل
فى الفرق بين علم اليقين وعين اليقين

الفرق بين علم اليقين وعين اليقين كالفرق بين الخبر الصادق والعيان ، وحق اليقين فوق هذا .

وقد مثلت المراتب الثلاثة بمن أخبرك : أن عنده عسلا وأنت لا تشك فى صدقه ، ثم أراك إياه ، فازددت يقيناً ، ثم ذقت منه . فالأول : علم اليقين . والثانى : عين اليقين . والثالث : حق اليقين .

فعلمنا الآن بالجنة والنار : علم يقين . فإذا أزلفت الجنة فى الموقف للمتقين ، وشاهدها الخلائق ، وبرزت الجحيم للغاوين ، وعاينها الخلائق ، فذلك : عين اليقين . فإذا أدخل أهل الجنة وأهل النار النار ، فذلك حينئذ حق اليقين (٢).

فصل
فى الفرق بين الشوق والمحبة

الفرق بينهما فرق ما بين الشىء وأثره ، فإن الحامل على الشوق هو المحبة ؛ ولهذا يقال : لمحبتى له اشتقت إليه ، وأحببته فاشتقت إلى لقائه . ولا يقال : لشوقى إليه أحببته ، ولا اشتقت إلى لقائه فأحببته ، فالمحبة بذر فى القلب ، والشوق بعض ثمرات ذلك البذر . وكذلك من ثمراتها حمد المحبوب ، والرضا عنه ، وشكره ، وخوفه ، ورجاؤه ، والتنعم بذكره ، والسكون إليه ، والأنس به ، والوحشة بغيره ، وكل هذه من أحكام المحبة وثمراتها ، وهو حياتها . فمنزلة الشوق من المحبة منزلة الهرب من البغضاء

(١) مدارج السالكين (٣ / ٢٣٢ ، ٢٣٣) .
(٢) مدارج السالكين (٢ / ٤٠٣) .

والكراهة ، فإن القلب إذا أبغض الشيء وكرهه جد في الهرب منه ، وإذا أحبه جد في الهرب إليه وطلبه ، فهو حركة القلب في الظفر بمحبوبه ؛ ولشدة ارتباط الشوق بالمحبة يقع كل واحد منهما موقع صاحبه ، ويفهم منه ويعبر به عنه (١) .

فصل
في الفرق بين العز والذل

العز ضد الذل ، والذل أصله الضعف والعجز ، فالعز يقتضي كمال القدرة ؛ ولهذا يوصف به المؤمن ولا يكون ذمًا ، بخلاف الكبر. قال رجل للحسن البصري : إنك متكبر . فقال : لست بمتكبر ، ولكني عزيز . وقال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون : ٨] وقال ابن مسعود : مازلنا أعزة منذ أسلم عمر . وقال النبي ﷺ : « اللهم أعز الإسلام بأحد هذين الرجلين : عمر بن الخطاب ، أو أبي جهل بن هشام » (٢) وفي بعض الآثار : إن الناس يطلبون العزة في أبواب الملوك ، ولا يجدونها إلا في طاعة الله عز وجل . وفي الحديث : « اللهمَّ أعِزنا بِطاعَتِك ، ولا تُذلَّنا بِمَعْصِيَتِك » (٣) . وقال بعضهم: من أراد عزًا بلا سلطان، وكثرة بلا عشيرة ، وغنى بلا مال ، فلينتقل من ذل المعصية إلى عز الطاعة .

فالعزة من جنس القدرة والقوة ، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : «المؤمنُ القويّ خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كلّ خير » (٤). فالقدرة إن لم يكن معها حكمة بل كان القادر يفعل ما يريده بلا نظر في العاقبة ، ولا حكمة محمودة يطلبها بإرادته ويقصدها بفعله ، كان فعلها فسادا ، كصاحب شهوات الغيّ والظلم ، الذي يفعل بقوته ما يريده من شهوات الغي في بطنه وفرجه ومن ظلم الناس ، فإن هذا وإن كان له بقوة وعزة لكن لما لم يقترن بها حكمة كان ذلك معونة على شره وفساده (٥) .

---

(١) طريق الهجرتين (٣٢٨) .

(٢) الترمذي (٣٦٨١) في المناقب ، باب : في مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وقال : « حسن صحيح غريب » .

(٣) لم نقف عليه ، وفي الجواب الكافي لابن القيم أنه من دعاء بعض السلف .

(٤) مسلم (٢٦٦٤ / ٣٤) في القدر ، باب : في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله ، وابن ماجه (٧٩) في المقدمة ، باب : في القدر .

(٥) طريق الهجرتين (١٠٩) .

obeikandi.com

فصل
فى الفرق بين الشوق والاشتياق

قال أبو عبد الرحمن السلمى : سمعت النصراباذى يقول : للخلق كلهم مقام الشوق، وليس لهم مقام الاشتياق . ومن دخل فى حال الاشتياق هام فيه حتى لا يرى له أثر ولا قرار .وهذا يدل على أن الاشتياق عنده غير الشوق ، ولا ريب أن الاشتياق مصدر اشتاق يشتاق اشتياقا ، كما أن التشوق مصدر تشوق تشوقا ، والشوق فى الأصل اسم مصدر شاقه يشوقه شوقا مثل شاقه شوقا إذا دعاه إلى الاشتياق ، فالاشتياق مطاوع شاقه يقال : يشاقنى فاشتقت إليه . ثم صار الشوق اسم مصدر الاشتياق وغلب عليه حتى لا يفهم عند الإطلاق إلا الاشتياق القائم بالمشوق ، والمشوق هو الصب المشتاق ، والشائق هو الذى قام به وادعى الشوق .

فهاهنا ألفاظ الشوق والاشتياق والتشوق والشائق والمشوق والشيق. فهذه ستة ألفاظ : أحدها : الشوق ، وهو فى الأصل مصدر الفعل المتعدى شاقه يشوقه ، ثم صار اسم مصدر الاشتياق . اللفظ الثانى : الاشتياق ، وهو مصدر اشتاق اشتياقا ، والفرق بينه وبين الشوق هو الفرق بين المصدر واسم المصدر . اللفظ الثالث : التشوق ، وهو مصدر تشوق إذا اشتاق مرة بعد مرة كما يقال : تجرع وتعلم وتفهم : وهذا البناء مشعر بالتكلف وتناول الشىء على مهلة . اللفظ الرابع : الشائق ، وهو الداعى للمشوق إلى الاشتياق . اللفظ الخامس : المشوق ، وهو المشتاق الذى قد حصل له الشوق ، اللفظ السادس : الشيق ، وهو فيعل بمنزلة هين ولين ، وهو المشتاق .

فهذه فروق ما بين هذه الألفاظ ، وأما كون الاشتياق أبلغ من الشوق فهذا قد يقال فيه: إنه الأصل وهو أكثر حروفا من الشوق ، وهو يدل على المصدر والفاعل . وأما المشوق ففرع عليه لأنه اسم مصدر وأقل حروفا ، وهو إنما يدل على المصدر المجرد فهذه ثلاثة فروق منها ، والله أعلم [1] .

فصل
فيما تفترق فيه المرأة عن الرجل

إن مصلحة العبادات البدنية ، ومصلحة العقوبات الرجالُ والنساء مشتركون فيها ،

(١) طريق الهجرتين (٣٣٤) .

وحاجة أحد الصنفين إليها كحاجة الصنف الآخر ، فلا يليق التفريق بينهما ، نعم فرقت بينهما فى أليَق المواضع بالتفريق ، وهو الجمعة والجماعة ، فخص وجوبهما بالرجال دون النساء ؛ لأنهن لسْن من أهل البروز ومخالطة الرجال .

وكذلك فرقت بينهما فى عبادة الجهاد التى ليس الإناث من أهلها ، وسوت بينهما فى وجوب الحج لاحتياج النوعين إلى مصلحته ، وفى وجوب الزكاة والصيام والطهارة .

وأما الشهادة ، فإنما جعلت المرأة فيها على النصف من الرجل لحكمة أشار إليها العزيز الحكيم فى كتابه ، وهى أن المرأة ضعيفة العقل ، قليلة الضبط لما تحفظه ، وقد فضل الله الرجال على النساء فى العقول والفهم والحفظ والتمييز ، فلا تقوم المرأة فى ذلك مقام الرجل ،وفى منع قبول شهادتها بالكلية إضاعة لكثير من الحقوق ، وتعطيل لها ، فكان من أحسن الأمور وألصقها بالعقول أن ضُمَّ إليها فى قبول الشهادة نظيرها لتذكرها إذا نسيت ، فتقوم شهادة المرأتين مقام شهادة الرجل ، ويقع من العلم أو الظن الغالب بشهادتهما ما يقع بشهادة الرجل الواحد .

وأما الدية ، فلما كانت المرأة أنقص من الرجل ،والرجل أنفع منها ، ويسد ما لا تسده المرأة من المناصب الدينية والولايات ، وحفظ الثغور والجهاد ، وعمارة الأرض، وعمل الصنائع التى لا تتم مصالح العالم إلا بها ، والذب عن الدنيا والدين ، لم تكن قيمتهما مع ذلك متساوية وهى الدية ؛ فإن دية الحر جارية مجرى قيمة العبد وغيره من الأموال ، فاقتضت حكمة الشارع أن جعل قيمتها على النصف من قيمته لتفاوت ما بينهما .

فإن قيل : لكنكم نقضتم هذا ، فجعلتم ديتهما سواء فيما دون الثلث .

قيل : لا ريب أن السنة وردت بذلك كما رواه النسائى من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « عَقْل المرأة مثل عَقْل الرجل ، حتى يبلغ الثلث من ديتها » (١) .

وقال سعيد بن المسيب : إن ذلك السنة ، وإن خالف فيه أبو حنيفة والشافعى والليث والثورى وجماعة ، وقالوا : هى النصف فى القليل والكثير ، ولكن السنة أولى .

والفرق فيما دون الثلث ، وما زاد عليه أن ما دونه قليل ، فجبرت مصيبة المرأة فيه بمساواتها للرجل ، ولهذا استوى الجنين الذكر والأنثى فى الدية لقلة ديته ، وهى الغُرَّة فنزل ما دون الثلث منزلة الجنين .

---

(١) النسائى (٤٨٠٥) فى القسامة ، باب : عقل المرأة ، وذكره الحافظ ابن حجر فى التلخيص الحبير (١٩٠٩) ، وضعفه الألبانى فى ضعيف النسائى وفى إرواء الغليل (٢٢٥٤) .

وأما الميراث ، فحكمة التفضيل فيه ظاهرة ، فإن الذكر أحوج إلى المال من الأنثى ؛ لأن الرجال قوَّامون على النساء ، والـذكرُ أنفع للميت فى حـياته من الأنثى ، وقد أشار ـ سبحانه وتعالى ـ إلى ذلك بقوله بعد أن فرض الفرائض،وفاوت بين مقاديرها : ﴿ **آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا** ﴾ [النساء : ١١] ، وإذا كان الذكر أنفعَ من الأنثى وأحوج ، كان أحقَّ بالتفضيل .

فإن قيل : فهذا ينتقض بولد الأم .

قيل : بل طرد هذه التسوية بين ولد الأم ذكرهم وأنثاهم ، فإنهم إنما يرثون بالرحم المجرد ، فالقرابة التى يرثون بها قرابة أنثى فقط ، وهم فيها سواء ، فلا معنى لتفضيل ذكرهم على أنثاهم ، بخلاف قرابة الأب .

وأما العقيقة فأمر التفضيل فيها تابع لشرف الذكر ، وما ميزه الله به على الأنثى .

ولما كانت النعمة به على الوالد أتم ، والسرور والفرحة به أكمل ، وكان الشكران عليه أكثر ، فإنه كلما كثرت النعمة كان شكرها أكثر ، والله أعلم [١] .

فصل
فى الفرق بين الطمأنينة والسكينة

قال صاحب المنازل : « الطمأنينة : سكون يُقَوِّيه أمنٌ صحيح ، شبيه بالعيان .وبينها وبين السكينة فرقان :

أحدهما : أن « السكينة » صولة تورث خمود الهيبة أحيانا ، و« الطمأنينة » سكون أمن فى استراحة أنس .

والثانى : أن « السكينة » تكون نعتًا ، وتكون حينًا بعد حين ، و« الطمأنينة » لا تفارق صاحبها » .

« الطمأنينة » موجب السكينة ، وأثر من آثارها ، وكأنها نهاية السكينة .

فقوله : « سكون يقويه أمن » : أى سكون القلب مع قوة الأمن الصحيح الذى لا يكون أمن غرور . فإن القلب قد يسكن إلى أمن الغرور . ولكن لا يطمئن به لمفارقة ذلك السكون له . و « الطمأنينة » لا تفارقه ، فإنها مأخوذة من الإقامة . يقال : اطمأن بالمكان

(١) إعلام الموقعين (٢ / ١٤٥ ـ ١٤٧) .

والمنزل : إذا أقام به .

وسبب صحة هذا الأمن المقوى للسكون : شبهه بالعيان ، بحيث لا يبقى معه شيء من مجوزات الظنون والأوهام ، بل كأن صاحبه يعاين ما يطمئن به ، فيأمن به اضطراب قلبه وقلقه وارتيابه .

وأما الفرقان اللـــذان ذكرهما بينها وبين السكينة ، فحـاصل الفـــرق الأول : أن « السكينة» تصول على الهيبة الحاصلة فى القلب فتخمدها فى بعض الأحيان ، فيسكن القلب من انزعاج الهيبة بعض السكون . وذلك فى بعض الأوقات .

فليس حكمًا دائما مستمراً ، وهذا يكون لأهل « الطمأنينة » دائما ، ويصحبه الأمن والراحة بوجود الأنس . فإن الاستراحة فى « السكينة » قد تكون من الخوف والهيبة فقط، والاستراحة فى منزل « الطمأنينة » تكون مع زيادة أنس ، وذلك فوق مجرد الأمن ، وقدر زائد عليه .

وحاصل الفرق الثانى : أن « الطمأنينة » مَلَكة ، ومقام لا يُفارَق ، و « السكينة » تنقسم إلى سكينة هى مقام ونعت لا يزول ، وإلى سكينة تكون وقتًا دون وقت . هذا حاصل كلامه .

والذى يظهر لى فى الفرق بينهما أمران ، سوى ما ذكر :

أحدهما : أن ظفره وفوزه بمطلوبه الذى حصَّل له السكينة بمنزلة من واجهه عدو يريد هلاكه ، فهرب منه عدوه ، فسكن روعه . والطمأنينة بمنزلة حصن رآه مفتوحًا فدخله ، وأمن فيه ، وتقوى بصاحبه وعدته . فللقلب ثلاثة أحوال :

أحدها : الخوف والاضطراب والقلق من الوارد الذى يزعجه ويقلقه .

الثانى : زوال ذلك الوارد الذى يزعجه ويقلقه عنه وعدمه .

الثالث : ظفره وفوزه بمطلوبه الذى كان ذلك الوارد حائلا بينه وبينه .

وكل منهما يستلزم الآخر ويقارنه ، فالطمأنينة تستلزم السكينة ولا تفارقها ، وكذلك بالعكس ، لكن استلزام الطمأنينة للسكينة أقوى من استلزام السكينة للطمأنينة .

الثانى : أن « الطمأنينة » أعم ، فإنها تكون فى العلم والخبر به ، واليقين والظفر بالمعلوم ؛ ولهذا اطمأنت القلوب بالقرآن لما حصل لها الإيمان به ، ومعرفته والهداية به فى ظُلَم الآراء والمذاهب ، واكتفت به منها ، وحكَّمته عليها وعَزَلَتها ، وجعلت له الولاية

بأسرها كما جعلها الله . فيه خاصمت ، وإليه حاكمت ، وبه صالت ، وبه دفعت الشبه ، وأما « السكينة » فإنها ثبات القلب عند هجوم المخاوف عليه ، وسكونه [١] .

فصل
فى الفرق بين وتر الليل ووتر النهار

قد صحت السنة بالفَرق بين الوترين من وجوه كثيرة :

أحدها : الجمع بين الجهر والسر فى وتر النهار دون وتر الليل .

الثانى : وجوب الجماعة أو مشروعيتها فيه دون وتر الليل .

الثالث : أنه ﷺ فَعَلَ وتر الليل على الراحلة دون وتر النهار .

الرابع : أنه قال فى وتر الليل : إنه ركعة واحدة ، دون وتر النهار .

الخامس : أنه أوتر بتسع وسبع وخمس موصولة دون وتر النهار .

السادس : أنه نهى عن تشبيه وتر الليل بوتر النهار .

السابع : أن وتر الليل اسم للركعة وحدها ، ووتر النهار اسم لمجموع صلاة المغرب كما فى صحيح مسلم من حديث ابن عمر وابن عباس : أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول: «الوتر ركعة من آخر الليل » [٢] .

الثامن : أن وتر النهار فرض ، ووتر الليل ليس بفرض باتفاق الناس .

التاسع : أن وتر النهار يُقْضى بالاتفاق ، وأما وتر الليل فلم يَقمْ على قضائه دليل ، فإن المقصود منه قد فات فهو كتحية المسجد ورفع اليدين فى محل الرفع والقنوت إذا فات ، وقد توقف الإمام أحمد فى قضاء الوتر ، وقال شيخنا : لا يقضى قال : وقد ثبت عن النبى ﷺ أنه كان إذا مَنَعه من قيام الليل نوم أو وجع صلى من النهار ثنتى عشرة ركعة ، ولم يذكر الوتر » [٣] .

العاشر : أن المقصود من وتر الليل جعل ما تقدمه من الأشفاع كلها وتراً ، وليس

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٥١٤ ، ٥١٥) .

(٢) مسلم (٧٥٢ / ١٥٣) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب : صلاة الليل مثنى مثنى ، والوتر ركعة من آخر الليل .

(٣) مسلم (٧٤٦ / ١٤٠) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب : جامع صلاة الليل ، ومن نام عنه أو مرض .

المقصود منه إيثار الشفع الذى يليه خاصة ، وكان الأقيَسُ ما جاءت به السنة أن يكون ركعة مفردة توتر جميع ما قبلها ، وبالله التوفيق [١] .

فصل
فى الفرق بين المُعَرِّض والمحتال

المعرِّض إنما يقصد باللفظ ما جُعل اللفظ دالا عليه ومثبتًا له فى الجملة ، فهو لم يخرج بتعريضه عن حدود الكلام ، فإن الكلام فيه الحقيقة والمجاز ، والعام والخاص ، والمطلق والمقيد ، والمفرد والمشترك ، والمتباين والمترادف ، وتختلف دلالته تارة ، بحسب اللفظ المفرد ، وتارة بحسب التأليف ، فأين هذا من الحيل التى يقصد بالعقد فيها ما لم يشرَع العقدُ له أصلا ، ولا هو مقتضاه ، ولا موجبه شرعا ولا حقيقةً ؟ !

وفرق ثان : وهو أن المعرِّض لو صرّح بقصده لم يكن باطلا ولا محرّمًا ، بخلاف المحتال ، فإنه لو صرَّح بما قصدَه بإظهار صورة العقد ، كان محرّما باطلا ، فإن المرابى بالحيلة لو قال : بعتك مائةً حالَّةً بمائة وعشرين إلى سنة ، كان حرامًا باطلاً ، وذلك عينُ مقصوده ، ومقصود الآخر .

وكذلك المقرِضُ لو قال : أقرضتك ألفاً على أن تعيُدها إلىَّ ومعها زيادة كذا وكذا ، كان حراماً باطلا ، وذلك نفسُ مقصوده .

وكذلك المحلِّلُ لو قال : تزوجتها على أن أحلِّها للمطلِّق ثلاثًا .

والمعرِّض لو صرح بمقصوده لم يكن حراماً ، فأين أحدُهما من الآخر ؟

وفرقٌ ثالث : وهو أن المعرِّض قصدَ بالقول ما يحتمله اللفظ ، أو يقتضيه . والمحتال قصدَ بالعقد ما لا يحتمله ، ولا جُعل مقتضياً له ، لا شرعاً ولا عرفاً ولا حقيقةً .

وفرقٌ رابع : وهو أن المعرِّض مقصدهُ صحيح ، ووسيلته جائزة ، فلا حَجْر عليه فى مقصوده ، ولا فى وسيلته إلى مقصوده ، بخلاف المحتال ، فإن قصده أمرٌ محرم ، ووسيلته باطلة .

وفرقٌ خامس : وهو أن التعريضَ المباح ليس من مخادعة الله سبحانه فى شىء ، وإنما غايته أنه مخادعة لمخلوقٍ أباح الشارع مخادعته لظلمه ، جزاء له على ذلك ، ولا يلزم من

(١) إعلام الموقعين (٢ / ٤٠٠ ، ٤٠١) .

جواز مخادعة الظالم جواز مخادعة المحِقّ ، فما كان من التعريض مخالفاً لظاهر اللفظ فى نفسه كان قبيحاً إلا عند الحاجة ، وما لم يكن كذلك كان جائزاً إلا عند تضمن مفسدة ، والذى يدخلُ فى الحيل المذمومة إنما هو الأول ، فالمعرض قاصدٌ لدفع الشر ، والمحتالُ بالباطل قاصد لدفع الحق (١) .

فصل
فى الفرق بين محمد وأحمد

الفرق بين « محمد » و « أحمد » من وجهين :

أحدهما : أن « محمداً » هو المحمود حمداً بعد حمد ، فهو دال على كثرة حمد الحامدين له، وذلك يستلزم كثرة مُوجبات الحمد فيه و« أحمد » أفعل تفضيل من الحمد يدلُّ على أن الحمد الذى يستحقَّه أفضلُ مما يستحقه غيره ، فمحمد زيادة حمد فى الكمية ، و«أحمد » زيادة فى الكيفية ، فيحمد أكثر حمد وأفضل حمدٍ حَمِدَه البشر .

الوجه الثانى : أن « محمداً » هو المحمود حمداً متكرراً . و « أحمد » هو الذى حمدُه لربه أفضل من حمد الحامدين غيره ، فدلَّ أحد الاسمين وهو « محمد » على كونه محموداً، ودلَّ الاسم الثانى وهو « أحمد » على كونه أحمد الحامدين لربه (٢) .

فصل
فى الفرق بين الأقوال والأفعال فى الإكراه

الفرق بين الأقوال والأفعال فى الإكراه : أن الأفعال إذا وقعت لم ترتفع مفسدتها ، بل مفسدتها معها ، بخلاف الأقوال فإنها يمكن إلغاؤها (٣) .

فصل
فى الفرق بين الرضا والتوكل

الرضا بالتدبير ثمرة التوكل وموجبه لا أنه نفس التوكل فى المقدور ، يكشفه أمران :

---

(١) إغاثة اللهفان (٢ / ١٠٥ ، ١٠٦) .
(٢) جلاء الأفهام (١٤٧) .
(٣) زاد المعاد (٥ / ٢٠٥) .

التوكل قبل وقوعه ، والرضا به بعد وقوعه . ومن هنا قال بعضهم : حقيقة التوكل الرضا؛ لأنه لما كان ثمرته وموجبه استدل به عليه استدلالا بالأثر على المؤثر وبالمعلول على العلة ؛ ولهذا قال فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد والنسائى وغيرهما عن النبى ﷺ أنه قال فى دعائه : « اللهم إنى أسألك بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق ، أحينى ما كانت الحياة خيراً لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خير لى . اللهم وأسألك خشيتك فى الغيب والشهادة ، وأسألك الحق فى الغضب والرضا ، وأسألك القصد فى الفقر والغنى ، وأسألك نعيما لا ينفد ، وأسألك قرة عين لا تنقطع ، وأسألك الرضا بعد القضاء ، وأسألك برد العيش بعد الموت » (١) الحديث ، فقال : « وأسألك الرضا بعد القضاء » وأما التوكل فإنما يكون قبله(٢) .

فصل
فى الفرق بين الاسم والكنية واللقب

هذه الثلاثة وإن اشتركت فى تعريف المدعو بها ، فإنها تفترق فى أمر آخر ، وهو أن الاسم إما أن يفهِم مدحاً أو ذما ، أو لا يفهِم واحداً منهما .

فإن أفهم ذلك فهو اللقب ، وغالب استعماله فى الذَّمّ ،ولهذا قال الله تعالى : ﴿ **وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ** ﴾ [الحجرات : ١١] ، ولا خلاف فى تحريم تلقيب الإنسان بما يكرهه ،سواء كان فيه أو لم يكن،وأما إذا عرف بذلك، واشتهر به :كالأعمش،والأشتر،والأصم، والأعرج،فقد اطَّرد استعماله على ألسنة أهل العلم قديماً وحديثاً،وسَهَّل فيه الإمام أحمد .

قال أبو داود فى مسائله : سمعت أحمد بن حنبل سئل عن الرجل يكون له اللقب ، لا يعرف إلا به ولا يكرهه ؟ قال : أليس يقال :سليمان الأعمش ، وحميد الطويل ؟ كأنه لايرى به بأساً .

قال أبو داود : سألت أحمد عنه مرة أخرى ، فرخَّص فيه ، قلت كان أحمد يكره أن يقول : الأعمش .قال الفضيل : يزعمون كأن يقول : سليمان .

وأما ألا يفهِم مدحاً ولا ذَمّا ،فإن صُدِّر بأب وأم فهو الكنية ، كأبى فلان وأم فلان، وإن لم يُصَدَّر بذلك ، فهو الاسم (٣) .

---

(١) النسائى (١٣٠٥) فى السهو ، باب : الدعاء بعد الذكر ، وأحمد ٤ / ٢٦٤ .
(٢) طريق الهجرتين (٣٤٠) . (٣) تحفة المودود (١٥٧) .

فصل
فى الفرق بين المداراة والمداهنة

المداراة صفة مدح والمداهنة صفة ذم ، والفرق بينهما : أن المدارى يتطلف بصاحبه حتى يستخرج منه الحق أو يرده عن الباطل، والمداهن يتلطف به ليقره على باطله ويتركه على هواه . فالمداراة لأهل الإيمان والمداهنة لأهل النفاق .

ولقد ضرب لذلك مثل مطابق وهو حال رجل به قرحة قد آلمته ، فجاءه الطبيب المداوى الرفيق فتعرف حالها ، ثم أخذ فى تليينها حتى إذا نضجت أخذ فى طبخها برفق وسهولة ، حتى أخرج ما فيها ، ثم وضع على مكانها من الدواء والمرهم ما يمنع فساده ويقطع مادته ، ثم تابع عليها بالمراهم التى تنبت اللحم ، ثم يذر عليها بعد نبات اللحم ما ينشف رطوبتها ، ثم يشد عليها الرباط ولم يزل يتابع ذلك حتى صلحت . والمداهن قال لصاحبها : لا بأس عليك منها وهذه لا شيء فاسترها عن العيون بخرقه ثم آله عنها ، فلا تزال مدتها تقوى وتستحكم حتى عظم فسادها (١) .

فصل
فى الفرق بين خشوع الإيمان وخشوع النفاق

الفرق بين خشوع الإيمان وخشوع النفاق : أن خشوع الإيمان هو خشوع القلب لله بالتعظيم والإجلال والوقار والمهابة والحياء ، فينكسر القلب لله كسرة ملتئمة من الوجل والخجل والحب والحياء وشهود نعم الله وجناياته هو ، فيخشع القلب لا محالة ، فيتبعه خشوع الجوارح. وأما خشوع النفاق فيبدو على الجوارح تصنعاً وتكلفاً والقلب غير خاشع .

وكان بعض الصحابة يقول : أعوذ بالله من خشوع النفاق ، قيل له : وما خشوع النفاق ؟ قال : أن يرى الجسد خاشعاً والقلب غير خاشع .

فالخاشع لله عبد قد خمدت نيران شهوته ، وسكن دخانها عن صدره ، فانجلى الصدر وأشرق فيه نور العظمة ، فماتت شهوات النفس للخوف والوقار الذى خشى به ، وخمدت الجوارح ، وتوقر القلب واطمأن إلى الله وذكره بالسكينة التى نزلت عليه من ربه ، فصار

---

(١) الروح (٣٤٥ ، ٣٤٦) .

مخبتاً له . والمخبت : المطمئن ؛ فإن الخبت من الأرض ما اطمأن فاستنقع فيه الماء ، فكذلك القلب المخبت قد خشع واطمأن كالبقعة المطمئنة من الأرض التى يجرى إليها الماء فيستقر فيها ، علامته أن يسجد بين يدى ربه إجلالا له وذلا وانكساراً بين يديه سجدة لا يرفع رأسه عنها حتى يلقاه . وأما القلب المتكبر فإنه قد اهتز بتكبره عربًا ، فهو كبقعة رابية من الأرض لا يستقر عليه الماء فهذا خشوع الإيمان .

وأما التماوت وخشوع النفاق فهو حال عند تكلف إسكان الجوارح تصنعاً ومراءاة ، ونفسه فى الباطن شابة طرية ذات شهوات وإرادات ، فهو يتخشع فى الظاهر ، وحية الوادى وأسد الغابة رابض بين جنبيه ينتظر الفريسة

فصل
فى الفرق بين شرف النفس والتيه

أما شرف النفس فهو صيانتها عن الدنايا والرذائل والمطامع التى تقطع أعناق الرجال ، فيربأ بنفسه عن أن يلقبها فى ذلك . بخلاف التيه ، فإنه خلق متولد بين أمرين : إعجابه بنفسه وإرادته بغيره ، فيتولد من بين هذين التيه ، والأول يتولد بين خلقين كريمين : إعزاز النفس وإكرامها وتعظيم مالكها وسيدها أن يكون عبده دنيًا وضيعاً خسيساً ، فيتولد من بين هذين الخلقين شرف النفس وصيانتها . وأصل هذا كله استعداد النفس وتهيؤها ، وإمداد وليها ومولاها لها ، فإذا فقد الاستعداد والإمداد فقد الخير كله .

فصل
فى الفرق بين الحمية والجفاء

فالحمية فطام النفس عن رضاع اللوم من ثدى هو مصب الخبائث والرذائل والدنايا ، ولو غزر لبنه وتهالك الناس عليه ، فإن لهم فطاماً تنقطع معه الأكباد حسرات فلا بد من الفطام، فإن شئت عجل وأنت محمود مشكور ، وإن شئت أخر وأنت غير مأجور . بخلاف الجفاء فإنه غلظة فى النفس وقساوة فى القلب وكثافة فى الطبع يتولد عنها خلق يسمى الجفاء .

فصل
فى الفرق بين التواضع والمهانة

والفرق بين التواضع والمهانة : أن التواضع يتولد من بين العلم بالله ـ سبحانه ـ ومعرفة أسمائه وصفاته ونعوت جلاله وتعظيمه ومحبته وإجلاله ، ومن معرفته بنفسه وتفاصيلها وعيوب عمله وآفاتها ، من بين ذلك كله خلق هو التواضع ، وهو إنكسار القلب لله وخفض جناح الذل والرحمة بعباده ، فلا يرى له على أحد فضلاً ، ولا يرى له عند أحد حقاً ، بل يرى الفضل للناس عليه والحقوق لهم قبله ، وهذا خلق إنما يعطيه الله عز وجل من يحبه ويكرمه ويقربه .

وأما المهانة: فهى الدناءة والخسه وبذل النفس ، وابتذالها فى نيل حظوظها وشهواتها ، كتواضع السفل فى نيل شهواتهم ، وتواضع المفعول به للفاعل ، وتواضع طالب كل حظ لمن يرجو نيل حظه منه . فهذا كله ضعة لا تواضع ، والله ـ سبحانه ـ يحب التواضع ويبغض الضعة والمهانة ، وفى الصحيح عنه صلى الله عليه وآله وسلم : « وأوحى إلىّ : تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغى أحد على أحد »[1] .

والتواضع المحمود على نوعين :

النوع الأول : تواضع العبد عند أمر الله امتثالاً ، وعند نهيه اجتناباً . فإن النفس لطلب الراحة تتلكأ فى أمره فيبدو منها نوع إباء وشراد هرباً من العبودية ، وتثبت عند نهيه طلباً للظفر بما منع منه ، فإذا وضع العبد نفسه لأمر الله ونهيه فقد تواضع للعبودية .

والنوع الثانى : تواضعه لعظمة الرب وجلاله وخضوعه لعزته وكبريائه ، فكلما شمخت نفسه ذكر عظمة الرب تعالى وتفرده بذلك وغضبه الشديد على من نازعه ذلك فتواضعت إليه نفسه ، وانكسر لعظمة الله قلبه،واطمأن لهيبته ، وأخبت لسلطانه ، فهذا غاية التواضع وهو يستلزم الأول من غير عكس ، والمتواضع حقيقة من رزق الأمرين ، والله المستعان .

فصل
فى الفرق بين القوة فى أمر الله والعلو فى الأرض

القوة فى أمر الله هى من تعظيمه وتعظيم أوامره وحقوقه حتى يقيمها لله ، والعلو فى

---

(١) مسلم (٢٨٦٥/ ٦٤) فى الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب : الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار .

الأرض هو من تعظيم نفسه وطلب تفردها بالرياسةونفاذ الكلمة،سواء عز أمر الله أو هان ، بل إذا عارضه أمر الله وحقوقه ومرضاته فى طلب علوه لم يلتفت إلى ذلك ، وأهدره وأماته فى تحصيل علوه .

فصل
فى الفرق بين الحمية لله والحمية للنفس

وكذلك الحمية لله والحمية للنفس ، فالأولى يثيرها تعظيم الأمر والآمر . والثانية يثيرها تعظيم النفس والغضب لفوات حظوظها ، فالحمية لله أن يحمى قلبه له من تعظيم حقوقه ، وهى حال عبد قد أشرق على قلبه نور سلطان الله فامتلأ قلبه بذلك النور ، فإذا غضب فإنما يغضب من أجل نور ذلك السلطان الذى ألقى على قلبه وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا غضب احمرت وجنتاه وبدا بين عينيه عرق بدره الغضب ، ولم يقم لغضبه شىء حتى ينتقم لله .

وروى زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن موسى بن عمر : أنه صلى الله عليه وآله وسلم إذا غضب اشتعلت قلنسوته نارًا . وهذا بخلاف الحمية للنفس ، فإنها حرارة تهيج من نفسه لفوات حظها أو طلبه ، فإن الفتنة فى النفس ، والفتنة هى الحريق والنفس متلظية بنار الشهوة والغضب ، فإنما هما حرارتان تظهران على الأركان ؛ حرارة من قبل النفس المطمئنة أثارها تعظيم حق الله ، وحرارة من قبل النفس الأمارة أثارها استشعار فوت الحظ .

فصل
فى الفرق بين الجود والسرف

والفرق بين الجواد والمسرف : أن الجواد حكيم يضع العطاء مواضعه ، والمسرف مبذر، وقد يصادف عطاؤه موضعه وكثيراً لا يصادفه . وإيضاح ذلك : أن الله ـ سبحانه ـ بحكمته جعل فى الماء حقوقاً وهى نوعان : حقوق موظفة ، وحقوق ثانية .

فالحقوق الموظفة : كالزكاة والنفقات الواجبة على من تلزمه نفقته .

والثانية : كحق الضيف ، ومكافأة المهدى ، وما وقى به عرضه ونحو ذلك . فالجواد يتوخى بماله أداء هذه الحقوق على وجه الكمال ، طيبة بذلك نفسه ، راضية مؤملة للخلف

فى الدنيا والثواب فى العقبى ، فهو يخرج ذلك بسماحة قلب ، وسخاوة نفس ، وانشراح صدر . بخلاف المبذر ، فإنه يبسط يده فى ماله بحكم هواه وشهوته جزافاً لا على تقدير ، ولا مراعاة مصلحة ، وإن اتفقت له .

فالأول : بمنزلة من بذر حبة فى الأرض تنبت وتوخى ببذره مواضع المغل والإنبات ، فهذا لا يعد مبذراً ولا سفيهاً .

والثانى : بمنزلة من بذر حبة فى سباخ وغراز من الأرض وإن اتفق بذره فى محل النبات بذر بذراً متراكماً بعضه على بعض ، فذلك المكان البذر فيه ضائع معطل ، وهذا المكان بذراً متراكماً بعضه على بعض ، فلذلك يحتاج أن يقلع بعض زرعه ليصلح الباقى ، ولئلا تضعف الأرض عن تربيته . والله ـ سبحانه ـ هو الجواد على الإطلاق ، بل كل موجود فى العالم العلوى والسفلى بالنسبة إلى جوده أقل من قطرة فى بحار الدنيا وهى من جوده ، ومع هذا فإنما ينزل بقدر ما يشاء ، وجوده لا يناقض حكمته ، ويضع عطاءه مواضعه وإن خفى على أكثر الناس أن تلك مواضعه ، فالله يعلم حيث يضع فضله ، وأى المحال أولى به .

فصل
فى الفرق بين المهابة والكبر

والفرق بين المهابة والكبر : أن المهابة أثر من آثار امتلاء القلب بعظمة الله ومحبته وإجلاله ، فإذا امتلأ القلب بذلك حل فيه النور ، ونزلت عليه السكينة ، وألبس رداء الهيبة ، فاكتسى وجهه الحلاوة والمهابة ، فأخذ بمجامع القلوب محبة ومهابة، فحنت إليه الأفئدة ، وقرت به العيون ، وأنست به القلوب . فكلامه نور ، ومدخله نور ، ومخرجه نور، وعمله نور ، وإن سكت علاه الوقار ، وإن تكلم أخذ بالقلوب والأسماع .

وأما الكبر : فأثر من آثار العجب والبغى من قلب قد امتلأ بالجهل والظلم ، ترحلت منه العبودية ، ونزل عليه المقت ، فنظره إلى الناس شزر ، ومشيه بينهم تبختر ، ومعاملته لهم معاملة الاستئثار لا الإيثار ولا الإنصاف ،ذاهب بنفسه تيهاً ، لا يبدأ من لقيه بالسلام ، وإن رد عليه رأى أنه قد بالغ فى الإنعام عليه ، لا ينطلق لهم وجهه ، ولا يسعهم خلقه ، ولا يرى لأحد عليه حقاً ، ويرى حقوقه على الناس ، ولا يرى فضلهم عليه ويرى فضله عليهم ، لا يزداد من الله إلا بعداً ، ومن الناس إلا صغاراً أو بغضاً .

فصل
فى الفرق بين الصيانة والتكبر

والفرق بين الصيانة والتكبر : أن الصائن لنفسه بمنزلة رجل قد لبس ثوباً جديداً نقى البياض ذا ثمن ، فهو يدخل به على الملوك فمن دونهم ، فهو يصونه عن الوسخ والغبار والطبوع وأنواع الآثار إبقاء على بياضه ونقائه ، فتراه صاحب تعزز وهروب من المواضع التى يخشى منها عليه التلوث ، فلا يسمح بأثر ولا طبع ولا لوث يعلو ثوبه ، وإن أصابه شىء من ذلك على غرة بادر إلى قلعه وإزالته ومحو أثره .

وهكذا الصائن لقلبه ودينه ، تراه يجتنب طبوع الذنوب وآثارها ، فإن لها فى القلب طبوعاً وآثاراً أعظم من الطبوع الفاحشة فى الثوب النقى البياض ، ولكن على العيون غشاوة أن تدرك تلك الطبوع ، فتراه يهرب من مظان التلوث ويحترس من الخلق ويتباعد من تخالطهم ، مخافة أن يحصل لقلبه ما يحصل للثوب الذى يخالط الدباغين والذباحين والطباخين ونحوهم .

بخلاف صاحب العلو ، فإنه وإن شابه هذا فى تحرزه وتجنبه ، فهو يقصد أن يعلو رقابهم ، ويجعلهم تحت قدمه ، فهذا لون وذاك لون .

فصل
فى الفرق بين الشجاعة والجرأة

والفرق بين الشجاعة والجـرأة : أن الشجاعة من القلب ، وهى ثباته واستقراره عند المخاوف ، وهـو خلق يتولد من الصبر وحسن الظن ، فإنه متى ظن الظفر وساعده الصبر ثبت ، كما أن الجبن يتولد من سوء الظن وعدم الصبر ، فلا يظن الظفر ولا يساعده الصبر. وأصل الجبن من سوء الظن ووسوسة النفس بالسوء ، وهـو ينشأ من الرئة ، فإذا ساء الظن ووسوسة النفس بالسوء انتفخت الرئة ، فزاحمت القلب فى مكانه ، وضيقت عليه حتى أزعجته عن مستقره ، فأصابه الزلازل والاضطراب لإزعاج الرئة له وتضييقها عليه؛ ولهذا جاء فى حديث عمرو بن العاص الذى رواه أحمد وغيره عن النبى صلى الله

عليه وآله وسلم : « شر ما فى المرء جبن خالع وشح هالع »[(١)] . فسمى الجبن خالعاً لأنه يخلع القلب عن مكانه ؛ لانتفاخ السحر وهو الرئة ، كما قال أبو جهل لعتبة بن ربيعة يوم بدر : انتفخ سحرك . فإذا قلب عن مكانه ضاع تدبير العقل فظهر الفساد على الجوارح ، فوضعت الأمور على غير مواضعها،فالشجاعة حرارة القلب وغضبه وقيامه وانتصابه وثباته، فإذا رأته الأعضاء كذلك أعانته ، فإنها خدم له وجنود ، كما أنه إذا ولى ولت سائر جنوده.

وأما الجرأة فهى إقدام سببه قلة المبالاة وعدم النظر فى العاقبة ، بل تقدم النفس فى غير موضع الإقدام يعرضه عن ملاحظة العارض ، فإما عليها وإما لها .

فصل
فى الفرق بين الحزم والجبن

وأما الفرق بين الحزم والجبن : فالحازم هو الذى قد جمع عليه همه وإراداته عقله ، ووزن الأمور بعضها ببعض فأعد لكل منها قرنه ، ولفظه الحزم تدل على القوة والإجماع . ومنه حزمة الحطب ، فحازم الرأى هو الذى اجتمعت له شؤون رأيه ، وعرف منها خير الخيرين وشر الشرين ، فأحجم فى موضع الإحجام رأياً وعقلاً لا جبناً ولا ضعفاً :

العاجز الرأى مضياع لفرصته ... حتى إذا فات أمر عاتب القدرا

فصل
فى الفرق بين الاقتصاد والشح

وأما الفرق بين الاقتصاد والشح : أن الاقتصاد خلق محمود يتولد من خلقين : عدل وحكمة ، فبالعدل فى المنع والبذل وبالحكمة يضع كل واحد منهما موضعه الذى يليق به ، فيتولد من بينهما الاقتصاد وهو وسط بين طرفين مذمومين ، كما قال تعالى : ﴿**وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا**﴾ [الإسراء: ٢٩] ، وقال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا** (٦٧)﴾ [الفرقان] ، وقال تعالى : ﴿ **وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا** ﴾ [الأعراف : ٣١].

---

(١) أبو داود (٢٥١١) فى الجهاد ، باب : فى الجراءة والجبن ، وأحمد ٢/ ٣٠٢ ، وقال الشيخ أحمد شاكر (٧٩٩٧): « إسناده صحيح » .

وأما الشح : فهو خلق ذميم يتولد من سوء الظن وضعف النفس ، ويمده وعد الشيطان حتى يصير هلعاً . والهلع شدة الحرص على الشيء والشره به ، فيتولد عنه المنع لبذله والجزع لفقده ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ ﴾ [المعارج] .

فصل
فى الفرق بين الاحتراز وسوء الظن

والفرق بين الاحتراز وسوء الظن : أن المحترز بمنزلة رجل قد خرج بماله ومركوبه مسافراً ، فهو يحترز بجهده من كل قاطع للطريق وكل مكان يتوقع منه الشر ، وكذلك يكون مع التأهب والاستعداد وأخذ الأسباب التى بها ينجو من المكروه ، فالمحترز كالمتسلح المتدرع الذى قد تأهب للقاء عدوه ، وأعد له عدته ، فهمه فى تهيئة أسباب النجاة ومحاربة عدوه قد أشغلته عن سوء الظن به ، وكلما ساء به الظن أخذ فى أنواع العدة والتأهب .

وأما سوء الظن ، فهو امتلاء قلبه بالظنون السيئة بالناس حتى يطفح على لسانه وجوارحه ، فهم معه أبداً فى الهمز واللمز والطعن والعيب والبغض ، يبغضهم ويبغضونه ، ويلعنهم ويلعنونه ، ويحذرهم ويحذرون منه ، فالأول يخالطهم ويحترز منهم ، والثانى يتجنبهم ويلحقه أذاهم ، الأول داخل فيهم بالنصيحة والإحسان مع الاحتراز ، والثانى خارج منهم مع الغش والدغل والبغض .

فصل
فى الفرق بين الفراسة والظن

والفرق بين الفراسة والظن : أن الظن يخطئ ويصيب ، وهو يكون مع ظلمة القلب ونوره وطهارته ونجاسته ؛ ولهذا أمر تعالى باجتناب كثير منه ، وأخبر أن بعضه إثم .

وأما الفراسة ، فأثنى على أهلها ومدحهم فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الحجر] . قال ابن عباس ﷺ وغيره أى للمتفرسين ، وقال تعالى : ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ [البقرة : ٢٧٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد : ٣٠]. فالفراسة الصادقة

لقلب قد تطهر وتصفى وتنزه من الأدناس وقرب من الله ، فهو ينظر بنور الله الذى جعله فى قلبه . وفى الترمذى وغيره من حديث أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله » (١) .

وهذه الفراسة نشأت له من قربه من الله ، فإن القلب إذا قرب من الله انقطعت عنه معارضات السوء المانعة من معرفة الحق وإدراكه ، وكان يلقيه من مشكاة قريبة من الله بحسب قربه منه ، وأضاء له النور بقدر قربه ، فرأى فى ذلك النور ما لم يره البعيد والمحجوب ، كما ثبت فى الصحيح من حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ـ فيما يروى عن ربه عز وجل أنه قال: « ما تقرب إلىَّ عبدى بمثل ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ،فبى يسمع ، وبى يبصر ، وبى يبطش ،وبى يمشى » (٢) .

فأخبر ـ سبحانه ـ أن تقرب عبده منه يفيده محبته له، فإذا أحبه قرب من سمعه وبصره ويده ورجله،فسمع به ، وأبصر به ، وبطش به ، فصار قلبه كالمرآة الصافية تبدو فيها صور الحقائق على ما هى عليه ، فلا تكاد تخطئ له فراسة ، فإن العبد إذا أبصر بالله أبصر الأمر على ما هو عليه ، فإذا سمع بالله سمعه على ما هو عليه ، وليس هذا من علم الغيب بل علام الغيوب قذف الحق فى قلب قريب مستبشر بنوره ، غير مشغول بنقوش الأباطيل والخيالات والوساوس التى تمنعه من حصول صور الحقائق فيه،وإذا غلب على القلب النور فاض على الأركان وبادر من القلب إلى العين فكشف بعين بصره بحسب ذلك النور .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يرى أصحابه فى الصلاة وهم خلفه كما يراهم وهم أمامه ، ورأى بيت المقدس عيانًا وهو بمكة ، ورأى قصور الشام ، وأبواب صنعاء ، ومدائن كسرى وهو بالمدينة يحفر الخندق ، ورأى أمراءه بمؤتة وقد أصيبوا وهو بالمدينة ، ورأى النجاشى بالحبشة لما مات وهو بالمدينة فخرج إلى المصلى فصلى عليه .

ورأى عمر سارية بنهاوند من أرض فارس هو وعساكر المسلمين وهم يقاتلون عدوهم، فناداه : يا سارية الجبل . ودخل عليه نفر من مذحج فيهم الأشتر النخعى ، فصعد فيه البصر وصوبه وقال : أيهم هذا ؟ قال : مالك بن الحارث ، فقال : ما له قاتله الله ، إنى

(١) الترمذى (٣١٢٧) فى تفسير القرآن ، باب : ومن سورة الحجر ، وضعفه الألبانى ، انظر : السلسلة الضعيفة (١٨٢١) .

(٢) البخارى (٦٥٠٢) فى الرقاق ، باب : التواضع .

لأرى للمسلمين منه يوماً عصيباً .

ودخل عمرو بن عبيد على الحسن فقال هذا سيد الفتيان إن لم يحدث . وقيل : إن الشافعي ومحمد بن الحسن جلسا فى المسجد الحرام فدخل رجل فقال محمد : أتفرس أنه نجار ، فقال الشافعي : أتفرس أنه حداد ، فسألاه فقال : كنت حداداً وأنا اليوم أنجر . ودخل أبو الحسن البوشنجى والحسن الحداد على أبى القاسم المناوى يعودانه ، فاشتريا فى طريقهما بنصف درهم تفاحاً نسيئة ، فلما دخلا عليه قال : ما هذه الظلمة فخرجا وقالا : ما علمنا ، لعل هذا من قبل ثمن التفاح ، فأعطيا الثمن ثم عادا إليه ووقع بصره عليهما فقال : يمكن الإنسان أن يخرج من الظلمة بهذه السرعة ؟ أخبرانى عن شأنكما ، فأخبراه بالقصة فقال : نعم ، كان كل واحد منكما يعتمد على صاحبه فى إعطاء الثمن والرجل مستح منكما فى التقاضى .

وكان بين أبى زكريا النخشبى وبين امرأة سبب قبل توبته ، فكان يوماً واقفاً على رأس أبى عثمان الحيرى فتفكر فى شأنها ، فرفع أبو عثمان إليه رأسه وقال : ألا تستحى ؟ وكان شاه الكرمانى جيد الفراسة لا تخطئ فراسته ، وكان يقول : من غض بصره عن المحارم ، وأمسك نفسه عن الشهوات ، وعمر باطنه بدوام المراقبة ، وظاهره باتباع السنة ، وتعود أكل الحلال لم تخطئ فراسته .

وكان شاب يصحب الجنيد يتكلم على الخواطر ، فذكر للجنيد ، فقال : إيش هذا الذى ذكر لى عنك ؟ فقال له : أعتقد شيئاً ، فقال له الجنيد: اعتقدت ، فقال الشاب : اعتقدت كذا وكذا ، فقال الجنيد : لا ، فقال : فاعتقد ثانياً ، قال : اعتقدت ، فقال الشاب : اعتقدت كذا وكذا ، فقال الجنيد : لا ، قال : فاعتقد ثالثاً ، قال : اعتقدت ، قال الشاب : هو كذا وكذا ، قال : لا ، فقال الشاب : هذا عجب وأنت صدوق وأنا أعرف قلبى ، فقال الجنيد : صدقت فى الأولى والثانية والثالثة ، لكن أردت أن أمتحنك هل يتغير قلبك ؟

وقال أبو سعيد الخراز : دخلت المسجد الحرام ، فدخل فقير عليه خرقتان يسأل شيئاً ، فقلت فى نفسى : مثل هذا كَلٌّ على الناس ، فنظر إلىَّ وقال : ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ** ﴾ [البقرة : ٢٣٥] قال : فاستغفرت فى سرى ، فنادانى وقال : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ** ﴾ [الشورى : ٢٥] .

وقال إبراهيم الخواص : كنت فى الجامع ، فأقبل شاب طيب الرائحة ، حسن الوجه، حسن الحرمة ، فقلت لأصحابنا : يقع لى أنه يهودى ! فكلهم كره ذلك ، فخرجت وخرج الشاب ، ثم رجع إليهم فقال : إيش قال الشيخ فىَّ ؟ فاحتشموه ، فألح عليهم فقالوا :

قال : إنك يهودى ، فجاء فأكب على يدى فأسلم ، فقلت : ما السبب ؟ فقال : نجد فى كتابنا أن الصديق لا تخطئ فراسته ، فقلت : أمتحن المسلمين ، فتأملتهم ، فقلت: إن كان فيهم صديق ففى هذه الطائفة فلبست عليكم ، فلما اطلع هذا الشيخ علىَّ وتفرسنى علمت أنه صديق .

وهذا عثمان بن عفان دخل عليه رجل من الصحابة ، وقد رأى امرأة فى الطريق فتأمل محاسنها ، فقال له عثمان : يدخل أحدكم وأثر الزنا ظاهر على عينيه ، فقلت : أَوَحْىٌ بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ فقال : لا ، ولكن تبصرة وبرهان وفراسة صادقة.

فهذا شأن الفراسة ، وهى نور يقذفه الله فى القلب ، فيخطر له الشىء فيكون كما خطر له ، وينفذ إلى العين فترى ما لا يراه غيرها .

فصل
فى الفرق بين النصيحة والغيبة

والفرق بين النصيحة والغيبة :أن النصيحة يكون القصد فيها تحذير المسلم من مبتدع أو فتان أو غاش أو مفسد ، فتذكر ما فيه إذا استشارك فى صحبته ومعاملته والتعلق به كما قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم لفاطمة بنت قيس وقد استشارته فى نكاح معاوية وأبى جهم فقال : « أما معاوية فصعلوك ، وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه »[1] ، وقال عن بعض أصحابه لمن سافر معه : إذا هبطت عن بلاد قومه فاحذره .

فإذا وقعت الغيبة على وجه النصيحة لله ورسوله وعباده المسلمين فهى قربة إلى الله من جملة الحسنات ، وإذا وقعت على وجه ذم أخيك وتمزيق عرضه والتفكه بلحمه والغض منه ؛ لتضع منزلته من قلوب الناس فهى الداء العضال ، ونار الحسنات التى تأكلها كما تأكل النار الحطب .

---

(١) مسلم (١٤٨٠ / ٣٦) فى الطلاق ، باب : المطلقة ثلاثًا لا نفقة لها ، أبو داود (٢٢٨٤) فى الطلاق ، باب : فى نفقة المبتوتة ، والنسائى (٣٢٤٤) فى النكاح ، باب : خطبة الرجل إذا ترك الخاطب أو أذن له .

فصل
فى الفرق بين الهدية والرشوة

والفرق بين الهدية والرشوة وإن اشتبها فى الصورة : القصد ، فإن الراشى قصده بالرشوة التوصل إلى إبطال حق أو تحقيق باطل ، فهذا الراشى الملعون على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فإن رشا لدفع الظلم عن نفسه اختص المرتشى وحده باللعنة .

وأما المهدى ، فقصده استجلاب المودة والمعرفة والإحسان ، فإن قصد المكافأة فهو معاوض ، وإن قصد الربح فهو مستكثر .

فصل
فى الفرق بين الصبر والقسوة

والفرق بين الصبر والقسوة : أن الصبر خلق كسبى يتخلق به العبد ، وهو حبس النفس عن الجزع والهلع والتشكى ، فيحبس النفس عن التسخط ، واللسان عن الشكوى ، والجوارح عما لا ينبغى فعله ، وهو ثبات القلب على الأحكام القدرية والشرعية .

وأما القسوة ، فيبس فى القلب يمنعه من الانفعال ، وغلظة تمنعه من التأثر بالنوازل ، فلا يتأثر لغلظته وقساوته لا لصبره واحتماله .

وتحقيق هذا أن القلوب ثلاثة :

قلب قاس غليظ بمنزلة اليد اليابسة ؛ وقلب مائع رقيق جداً .

فالأول لا ينفعل بمنزله الحجر ، والثانى بمنزلة الماء وكلاهما ناقص .

وأصح القلوب : القلب الرقيق الصافى الصلب ، فهو يرى الحق من الباطل بصفائه ويقبله ويؤثره برقته ويحفظه ، ويحارب عدوه بصلابته . وفى الأثر : القلوب آنية الله فى أرضه فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها . وهذا القلب الزجاجى ، فإن الزجاجة جمعت الأوصاف الثلاثة، وأبغض القلوب إلى الله القلب القاسى ، قال تعالى : ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ** ﴾ [الزمر : ٢٢] ، وقال تعالى : ﴿ **ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً** ﴾ [البقرة : ٧٤] ، وقال تعالى: ﴿ **لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي**

قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج :٥٣] فذكر القلبين المنحرفين عن الاعتدال ، هذا بمرضه، وهذا بقسوته ، وجعل إلقاء الشيطان عتمة لأصحاب هذين القلبين ورحمة لأصحاب الثالث، وهو القلب الصافى الذى ميز بين إلقاء الشيطان وإلقاء الملك بصفائه ، وقبل الحق بإخباته ورقته،وحارب النفوس المبطلة بصلابته وقوته ،فقال تعالى عقيب ذلك : ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٥٤) ﴾ [الحج] .

فصل
فى الفرق بين العفو والذل

والفرق بين العفو والذل : أن العفو إسقاط حقك جوداً وكرماً وإحساناً مع قدرتك على الانتقام فتؤثر الترك رغبة فى الإحسان ومكارم الأخلاق ، بخلاف الذل فإن صاحبه يترك الانتقام عجزاً وخوفاً ومهانة نفس ، فهذا مذموم غير محمود ، ولعل المنتقم بالحق أحسن حالا منه ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩) ﴾ [الشورى] .

فمدحهم على الانتصار لنفوسهم وتقاضيهم منها ذلك ، حتى إذا قدروا على من بغى عليهم وتمكنوا من استيفاء ما لهم عليه ندبهم إلى الخلق الشريف من العفو والصفح فقال : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠)﴾ [الشورى]. فذكر المقامات الثلاثة : العدل وأباحه ، والفضل وندب إليه ، والظلم وحرمه .

فإن قيل : فكيف مدحهم على الانتصار والعفو وهما متنافيان ؟

قيل : لم يمدحهم على الاستيفاء والانتقام وإنما مدحهم على الانتصار وهو القدرة والقوة على استيفاء حقهم ، فلما قدروا ندبهم إلى العفو . قال بعض السلف فى هذه الآية: كانوا يكرهون أن يستذلوا فإذا قدروا عفوا ، فمدحهم على عفو بعد قدرة ، لا على عفو ذل وعجز ومهانة ، وهذا هو الكمال الذى مدح ـ سبحانه ـ به نفسه فى قوله : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ [النساء :١٤٩] (١) ، ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢١٨] .

وفى أثر معروف : حملة العرش أربعة ؛اثنان يقولان : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك ، واثنان يقولان : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، لك

(١) فى المطبوعة « وكان الله عفواً قديرا » .

الحمد على عفوك بعد قدرتك . ولهذا قال المسيح ـ صلوات الله وسلامه عليه : ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)﴾ [المائدة] ، أى : إن غفرت لهم غفرت عن عزة وهى كمال القدرة ، وحكمة وهى كمال العلم ، فغفرت بعد أن علمت ما عملوا وأحاطت بهم قدرتك ، إذ المخلوق قد يغفر بعجزه عن الانتقام وجهله بحقيقة ما صدر من المسىء ، والعفو عن المخلوق ظاهره ضيم وذل وباطنه عز ومهانة ، وانتقام ظاهره عز وباطنه ذل ، فما زاد الله بعفو إلا عزّا ، ولا انتقم أحد لنفسه إلا ذل ، ولو لم يكن إلا بفوات عز العفو ؛ ولهذا ما انتقم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لنفسه قط ، وتأمل قوله سبحانه : ﴿ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩)﴾ [الشورى] كيف يفهم منه أن فيهم من القوة ما يكونون هم بها المنتصرين لأنفسهم ، لا أن غيرهم هو الذى ينصرهم .

ولما كان الانتصار لا تقف النفوس فيه على حد العدل غالباً بل لا بد من المجاوزة ، شرع فيه ـ سبحانه ـ المماثلة والمساواة ، وحرم الزيادة ، وندب إلى العفو .

والمقصود : أن العفو من أخلاق النفس المطمئنة ، والذل من أخلاق الأمارة . ونكتة المسألة : أن الانتقام شىء والانتصار شىء ، فالانتصار : أن ينتصر لحق الله ومن أجله ، ولا يقوى على ذلك إلا من تخلص من ذل حظه ورق هواها ، فإنه حينئذ ينال حظًا من العز الذى قسم الله للمؤمنين ، فإذا بغى عليه انتصر من الباغى من أجل عز الله الذى أعزه به، غيرة على ذلك العز أن يستضام ويقهر ، وحمية للعبد المنسوب إلى العزيز الحميد أن يستذل، فهو يقول للباغى عليه : أنا مملوك من لا يذل مملوكه ولا يحب أن يذله أحد ، وإذا كانت نفسه الأمارة قائمة على أصولها لم تحب بعد طلبه إلا الانتقام والانتصار لحظها وظفرها بالباغى ، تشفياً فيه وإذلالاً له .

وأما النفس التى خرجت من ذل حظها ورق هواها إلى عز توحيدها وإنابتها إلى ربها ، فإذا نالها البغى قامت بالانتصار حمية ونصرة للعز الذى أعزها الله به ونالته منه ، وهو فى الحقيقة حمية لربها ومولاها .

وقد ضرب لذلك مثلا بعبدين من عبيد الغلة حراثين،ضرب أحدهما صاحبه،فعفا المضروب عن الضارب نصحاً منه لسيده وشفقة على الضارب أن يعاقبه السيد ، فلم يجشم سيده خلعه على عقوبته وإفساده بالضرب ، فشكر العافى على عفوه ووقع منه بموقع . وعبد آخر قد أقامه بين يديه وجمله وألبسه ثيابا يقف بها بين يديه ، فعمد بعض سواس الدواب وأضرابهم ولطخ تلك الثياب بالعذرة أو مزقها ، فلو عفا عمن فعل به ذلك لم يوافق عفوه رأى سيده ولا محبته ،وكان الانتصار أحب إليه وأوفق ،كأنه يقول: إنما فعل

بك هذا جرأة علىَّ واستخفافاً بسلطانى ، فإذا مكنه من عقوبته فأذله وقهره ولم يبق إلا أن يبطش به ، فذل وانكسر قلبه ، فإن سيده يحب منه ألا يعاقبه لحظة ، وأن يأخذ منه حق السيد فيكون انتصاره حينئذ لمحض حق سيده لا لنفسه.

كما روى عن على رضي الله عنه : أنه مر برجل فاستغاث به وقال : هذا منعنى حقى ولم يعطنى إياه ، فقال : أعطه حقه ، فلما جاوزهما لج الظالم ولطم صاحب الحق فاستغاث بعلى ، فرجع وقال : أتلك الغوث ، فقال له : استقد منه ، فقال : قد عفوت يا أمير المؤمنين ، فضربه على تسع درر وقال : قد عفا عنك من لطمته . وهذا حق السلطان ، فعاقبه على لما اجترأ على سلطان الله ولم يدعه .

ويشبه هذا قصة الرجل الذى جاء إلى أبى بكر رضي الله عنه فقال : احملنى ، فوالله لأنا أفرس منك ومن ابنك ، وعنده المغيرة بن شعبة ، فحسر عن ذراعه وصك بها أنف الرجل فسال الدم ، فجاء قومه إلى أبى بكر رضي الله عنه فقالوا :أقدنا من المغيرة ، فقال : أنا أقيدكم من وزعة الله ؟ لا أقيدكم منه . فرأى أبوبكر أن ذلك انتصاراً من المغيرة وحمية لله ، وللعز الذى أعز به خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليتمكن بذلك العز من حسن خلافته وإقامة دينه ، فترك قوده لاجتراته على عز الله وسلطانه الذى أعز به رسوله ودينه وخليفته ، فهذا لون ، والضرب حمية للنفس الأمارة لون .

فصل
فى الفرق بين سلامة القلب والبله والغفل

والفرق بين سلامة القلب والبله والغفل : أن سلامة القلب تكون من عدم إرادة الشر بعد معرفته ، فيسلم قلبه من إرادته وقصده لا من معرفته به ، وهذا بخلاف البله والغفلة فإنها جهل وقلة معرفة. وهذا لا يحمد ، إذ هو نقص وإنما يحمد الناس من هو كذلك لسلامتهم منه ، والكمال أن يكون القلب عارفاً بتفاصيل الشر سليماً من إرادته . قال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه : لست بِخِبٍّ ولا يخدعنى الخب . وكان عمر أعقل من أن يخدع ، وأروع من أن يخدع ، وقال تعالى: ﴿ **يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ(٨٩)** ﴾ [الشعراء] ، فهذا هو السليم من الآفات التى تعترى القلوب المريضة من مرض الشبهة التى توجب اتباع الظن ، ومرض الشهوة التى توجب اتباع ما تهوى الأنفس ، فالقلب السليم الذى سلم من هذا وهذا .

فصل
فى الفرق بين الثقة والغرة

والفرق بين الثقة والغرة : أن الثقة سكون يستند إلى أدلة وأمارات يسكن القلب إليها، فكلما قويت تلك الأمارات قويت واستحكمت ولا سيما على كثرة التجارب وصدق الفراسة. واللفظة كأنها ـ والله أعلم ـ من الوثاق وهو الرباط ، فالقلب قد ارتبط بمن وثق به توكلاً عليه وحسن ظن به،فصار فى وثاق محبته ومعاملته والاستناد إليه والاعتماد عليه، فهو فى وثاقه بقلبه وروحه وبدنه ، فإذا سار القلب إلى الله وانقطع إليه تقيد بحبه وصار فى وثاق العبودية ، فلم يبق له مفزع فى النوائب ولا ملجأ غيره ، ويصير عدته وشدته وذخيرته فى نوائبه ، وملجأه فى نوازله ، ومستعانه فى حوائجه وضروراته .

وأما الغرة ، فهى حال المغتر الذى غرته نفسه وشيطانه وهواه ، وأمله الخائب الكاذب بربه ، حتى أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى . والغرور ثقتك بمن لا يوثق به ، وسكونك إلى من لا يسكن إليه ، ورجاؤك النفع من المحل الذى لا يأتى بخير ، كحال المغتر بالسراب ، قال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾** ﴾ [النور] وقال تعالى فى وصف المغترين : ﴿ **قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾** ﴾ [الكهف] ، وهؤلاء إذا انكشف الغطاء وثبتت حقائق الأمور علموا أنهم لم يكونوا على شىء : ﴿ **وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ** ﴾ [الزمر :٤٧] . وفى أثر معروف : إذا رأيت الله ـ سبحانه ـ يزيدك من نعمه وأنت مقيم على معصيته فاحذره ، فإنما هو استدراج يستدرجك به ، وشاهد هذا فى القرآن فى قوله تعالى : ﴿ **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾** ﴾ [الانعام] وهذا من أعظم الغرة أن تراه يتابع عليك نعمه وأنت مقيم على ما يكره ، فالشيطان موكل بالغرور وطبع النفس الأمارة الاغترار فإذا اجتمع الرأى والبغى والرأى المحاج ، والشيطان الغرور والنفس المغترة ،لم يقع هناك خلاف . فالشياطين غروا المغترين بالله وأطمعوهم مع إقامتهم على ما يسخط الله ويغضبه فى عفوه وتجاوزه ، وحدثوهم بالتوبة ؛ لتسكن قلوبهم ، ثم دافعوهم بالتسويف حتى هجم الأجل،فأخذوا على أسوء أحوالهم،وقال تعالى:﴿ **وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم**

بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الحديد] ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٥﴾ ﴾ [فاطر] .

وأعظم الناس غرورا بربه من إذا مسه الله برحمة منه وفضل قال: هذا لى أى أنا أهله، وجدير به ومستحق له ،ثم قال : وما أظن الساعة قائمة . فظن أنه أهل لما أولاه من النعم مع كفره بالله، ثم زاد فى غروره فقال : ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى : يعنى الجنة والكرامة .فهكذا تكون الغرة بالله ، فالمغتر بالشيطان مغتر بوعوده وأمانيه ، وقد ساعده اغتراره بدنياه ونفسه فلا يزال كذلك حتى يتردى فى آبار الهلاك .

فصل
فى الفرق بين الرجاء والتمنى

الفرق بين الرجاء والتمنى : أن الرجاء يكون مع بذل الجهد واستفراغ الطاقة فى الإتيان بأسباب الظفر والفوز .

والتمنى : حديث النفس بحصول ذلك مع تعطيل الأسباب الموصلة إليه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ٢١٨] فطوى ـ سبحانه ـ بساط الرجاء إلا عن هؤلاء . وقال المغترون : إن الذين ضيعوا أوامره وارتكبوا نواهيه واتبعوا ما أسخطه وتجنبوا ما يرضيه أولئك يرجون رحمته ، وليس هذا ببدع من غرور النفس والشيطان لهم ، فالرجاء لعبد قد امتلأ قلبه من الإيمان بالله واليوم الآخر فمثل بين عينيه ما وعده الله تعالى من كرامته وجنته ، فامتد القلب ماثلاً إلى ذلك شوقاً إليه ، وحرصاً عليه فهو شبيه بالماد عنقه إلى مطلوب قد صار نصب عينيه .

وعلامة الرجاء الصحيح : أن الراجى يخاف فوت الجنة وذهاب حظه منها ، بترك ما يخاف أن يحول بينه وبين دخولها ، فمثله مثل رجل خطب امرأة كريمة فى منصب وشرف إلى أهلها ، فلما آن وقت العقد واجتماع الأشراف والأكابر ، وإتيان الرجل إلى الحضور ، أعلم عشية ذلك اليوم ليتأهب للحضور ، فتراه المرأة وأكابر الناس فأخذ فى التأهب والتزين والتجمل فأخذ من فضول شعره ، وتنظف وتطيب ، ولبس أجمل ثيابه ، وأتى إلى تلك الدار متقياً فى طريقه كل وسخ ودنس وأثر يصيبه أشد تقوى حتى الغبار والدخان ، وما هو دون ذلك ، فلما وصل إلى الباب رحب به ربها ومكن له فى صدر الدار على الفراش والوسائد ،، ورمقته العيون وقصد بالكرامة من كل ناحية ، فلو أنه ذهب بعد أخذ هذه الزينة فجلس فى المزابل ، وتمرغ عليها وتمعك بها ، وتلطخ فى بدنه وثيابه بما عليها من

عذرة وقذر ، ودخل ذلك فى شعره وبشره وثيابه فجاء على تلك الحال إلى تلك الدار ، وقصد دخولها للوعد الذى سبق له ، فقام إليه البواب بالضرب والطرد والصياح عليه ، والإبعاد له من بابها ، وطريقها فرجع متحيراً خاسئاً ، فالأول حال الراجى ، وهذا حال المتمنى .

وإن شئت مثلت حال الرجلين بملك هو من أغير الناس وأعظمهم أمانة وأحسنهم معاملة ، لا يضيع لديه حق أحد وهو يعامل الناس من وراء ستر لا يراه أحد ، وبضائعه وأمواله وتجاراته وعبيده وإماؤه ، ظاهر بارز فى داره للمعاملين ، فدخل عليه رجلان فكان أحدهما يعامله بالصدق والأمانة والنصيحة ، لم يجرب عليه غشاً ولا خيانة ولا مكراً ، فباعه بضائعه كلها واعتمد مع مماليكه وجواريه ، ما يجب أن يعتمد معهم ، فكان إذا دخل إليه ببضاعة تخير له أحسن البضائع وأحبها إليه ، وإن صنعها بيده بذل جهده فى تحسينها وتنميتها ،وجعل ما خفى منها أحسن مما ظهر ويستلم المؤنة ممن أمره أن يستلمها منه ، وامتثل ما أمره به السفير وبينه فى مقدار ما يعمله؛ صفته وهيئته وشكله ورقته وسائر شؤونه.

وكان الآخر إذا دخل دخل بأخس بضاعة يجدها لم يخلصها من الغش ، ولا نصح فيها ولا اعتمد فى أمرها ما قاله المترجم عن الملك والسفير بينه وبين الصناع والتجار ، بل كان يعملها على ما يهواه هو ومع ذلك فكان يخون الملك فى داره ، إذ هو غائب عن عينه، فلا يلوح له طمع إلا خانه ، ولا حرمة للملك إلا مد بصره إليها ، وحرص على إفسادها ، ولا شيئاً يسخط الملك إلا ارتكبه إذا قدر عليه ، فمضيا على ذلك مدة .

ثم قيل : إن الملك يبرز اليوم لمعامليه حتى يحاسبهم ويعطيهم حقوقهم ، فوقف الرجلان بين يديه فعامل كل واحد منهما بما يستحقه .

فتأمل هذين المثلين ، فإن الواقع مطابق لهما ، فالراجى على الحقيقة لما صارت الجنة نصب عينه ورجاؤه وأمله امتد إليها قلبه وسعى لها سعيها ، فإن الرجاء هو امتداد القلب وميله وحقق رجاءه كمال التأهب وخوف الفوت والأخذ بالحذر .

وأصله من التنحى ورجا البئر : ناحيته ، وأرجاء السماء : نواحيها ،وامتداد القلب إلى المحبوب منقطعا عما يقطعه عنه ، هو تنح عن النفس الأمارة وأسبابها وما تدعو إليه ، وهذا الامتداد والميل والخوف من شأن النفس المطمئنة ، فإن القلب إذا انفتحت بصيرته فرأى الآخرة ، وما أعد الله فيها لأهل طاعته ، وأهل معصيته خاف وخف مرتحلا إلى الله والدار الآخرة ؛ وكان قبل ذلك مطمئناً إلى النفس ، والنفس إلى الشهوات والدنيا ، فلما انكشف عنه غطاء النفس خف وارتحل عن جوارها ، طالباً جوار العزيز الرحيم فى جنات النعيم ، ومن هاهنا صار كل خائف راجياً ، وكل راج خائفا ، فأطلق اسم أحدهما على

الآخر ، فإن الراجى قلبه قريب الصفة من قلب الخائف . هذا الراجى قد نحى قلبه عن مجاورة النفس والشيطان مرتحلا إلى الله ، قد رفع له من الجنة علم فشمر إليه وله مادأ إليه قلبه كله ، وهذا الخائف فار من جوارهما ملتجئ إلى الله من حبسه فى سجنهما فى الدنيا فيحبس معهما بعد الموت ويوم القيامة ، فإن المرء مع قرينه فى الدنيا والآخرة ، فلما سمع الوعيد ارتحل من مجاورة جار السوء فى الدارين ، فأعطى اسم الخائف . ولما سمع الوعد امتد واستطار شوقاً إليه وفرحا بالظفر به ، فأعطى اسم الراجى، وحالاه متلازمان لا ينفك عنهما،فكل راج خائف من فوات ما يرجوه، كما أن كل خائف راج أمنه مما يخاف ، فلذلك تداول الاسمان عليه ، قال تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣)﴾ [نوح] .

قالوا فى تفسيرها : لا تخافون لله عظمة . وقد تقدم أن الله ـ سبحانه ـ طوى الرجاء إلا عن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا ، وقد فسر النبى صلى الله عليه وآله وسلم الإيمان بأنه ذو شعب وأعمال ظاهرة وباطنة ، وفسر الهجرة بأنها هجرة ما نهى الله عنه ، والمجاهد من جاهد نفسه فى ذات الله فقال : « المهاجر من هجر ما نهى عنه، والمجاهد من جاهد نفسه فى ذات الله » .

والمقصود : أن الله ـ سبحانه ـ جعل أهل الرجاء من آمن وهاجر وجاهد وأخرج من سواهم من هذه الأمم .

وأما الأمانى : فإنها رؤوس أموال المفاليس ، أخرجوها فى قالب الرجاء ، وتلك أمانيهم ، وهى تصدر من قلب تزاحمت عليه وساوس النفس ، فأظلم من دخانها ، فهو يستعمل قلبه فى شهواتها ، وكلما فعل ذلك منته حسن العاقبة والنجاة ، وأحالته على العفو والمغفرة والفضل ، وأن الكريم لا يستوفى حقه ولا تضره الذنوب ولا تنقصه المغفرة، ويسمى ذلك رجاء ، وإنما هو وسواس وأمانى باطلة ، تقذف بها النفس إلى القلب الجاهل فيستريح إليها ، قال تعالى : ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (١٢٣)﴾ [النساء] .

فإذا ترك العبد ولاية الحق ونصرته ترك الله ولايته ونصرته ، ولم يجد له من دون الله ولياً ولا نصيرا ، وإذا ترك ولايته ونصرته تولته نفسه والشيطان فصارا وليين له ، ووكل إلى نفسه فصار انتصاره لها بدلا من نصرة الله ورسوله ، فاستبدل بولاية الله ولاية نفسه وشيطانه ، وبنصرته نصرة نفسه وهواه ، فلم يدع للرجاء موضعا . فإذا قالت لك

النفس : أنا فى مقام الرجاء . فطالبها بالبرهان ، وقل : هذه أمنية فهاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ، فالكيس يعمل أعمال البر على الطبع والرجاء ، والأحمق العاجز يعطل أعمال البر ويتكل على الأمانى التى يسميها رجاء . والله الموفق .

فصل
فى الفرق بين التحدث بنعم الله والفخر بها

والفرق بين التحدث بنعم الله والفخر بها : أن المتحدث بالنعمة مخبر عن صفات وليها ومحض جوده وإحسانه فهو مثن عليه بإظهارها والتحدث بها، شاكر له ناشر لجميع ما أولاه مقصوده بذلك إظهار صفات الله ومدحه والثناء ، وبعث النفس على الطلب منه دون غيره، وعلى محبته ورجائه فيكون راغبا إلى الله بإظهار نعمه ونشرها والتحدث بها .

وأما الفخر بالنعم ، فهو أن يستطيل بها على الناس ويريهم أنه أعز منهم وأكبر ، فيركب أعناقهم ويستعبد قلوبهم ويستميلها إليه بالتعظيم والخدمة .

قال النعمان بن بشير : إن للشيطان مصالى وفخوخا ، وإن مصاليه وفخوخه البطش بنعم الله ، والكبر على عباد الله ، والفخر بعطية الله ، والهون فى غير ذات الله .

فصل
فى الفرق بين فرح القلب وفرح النفس

والفرق بين فرح القلب وفرح النفس ظاهر ، فإن الفرح بالله ومعرفته ومحبته وكلامه من القلب ، قال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ** ﴾ [الرعد : ٣٦] .

فإذا كان أهل الكتاب يفرحون بالوحى فأولياء الله وأتباع رسوله أحق بالفرح به ، وقال تعالى : ﴿ **وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ** (١٢٤) ﴾ [التوبة] .

وقال تعالى : ﴿**قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ** (٥٨)﴾[يونس].

قال أبو سعيد الخدرى : فضل الله : القرآن ، ورحمته : أن جعلكم من أهله .

وقال هلال بن يساف : فضل الله ورحمته : الإسلام الذى هداكم إليه ، والقرآن الذى علمكم ، هو خير من الذهب والفضة الذى تجمعون .

وقال ابن عباس والحسن وقتادة وجمهور المفسرين :فضل الله : الإسلام ، ورحمته : القرآن ، فهذا فرح القلب وهو الإيمان ويثاب عليه العبد ، فإن فرحه به يدل على رضاه به، بل هو فوق الرضاء ، فالفرح بذلك على قدر محبته . فإن الفرح إنما يكون بالظفر بالمحبوب . وعلى قدر محبته يفرح بحصوله له . فالفرح بالله وأسمائه وصفاته وكلامه ورسوله ولقائه أفضل ما يعطياه بل هو أجل عطاياه . والفرح فى الآخرة بالله ولقائه بحسب الفرح به ومحبته فى الدنيا . فالفرح بالوصول إلى المحبوب يكون على حسب قوة المحبة وضعفها فهذا شأن فرح القلب .

وله فرح آخر وهو فرحه بما منَّ الله به عليه من معاملته والإخلاص له والتوكل عليه والثقة به وخوفه ورجائه به ، وكلما تمكن فى ذلك قوى فرحه وابتهاجه ، وله فرحة أخرى عظيمة الوقع عجيبة الشأن ، وهى الفرحة التى تحصل له بالتوبة ، فإن لها فرحة عجيبة لا نسبة لفرحة المعصية إليها البتة ، فلو علم العاصى أن لذة التوبة وفرحتها تزيد على لذة المعصية وفرحتها أضعافا مضاعفة ، لبادر إليها أعظم من مبادرته إلى لذة المعصية ، وسر هذا الفرح إنما يعلمه من علم سر فرح الرب تعالى بتوبة عبده أشد فرح يقدر ، ولقد ضرب له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثلا ليس فى أنواع الفرح فى الدنيا أعظم منه ، وهو فرح رجل قد خرج براحلته التى عليها طعامه وشرابه فى سفر ففقدها فى أرض دوية مهلكة ، فاجتهد فى طلبها فلم يجدها ، فيئس منها فجلس ينتظر الموت حتى إذا طلع البدر رأى فى ضوئه راحلته ، وقد تعلق زمامها بشجرة ، فقال من شدة فرحه : « اللهم أنت عبدى وأنا ربك » [1] . أخطأ من شدة الفرح ، فالله أفرح بتوبة عبده من هذا براحلته .

فلا ينكر أن يحصل للتائب نصيب وافر من الفرح بالتوبة ، ولكن هاهنا أمر يجب التنبيه عليه ، وهو أنه لا يصل إلى ذلك إلا بعد ترحات ومضض ومحن ، لا تثبت لها الجبال ، فإن صبر لها ظفر بلذة الفرح ، وإن ضعف عن حملها ولم يصبر لها لم يظفر بشىء وآخر أمره فوات ما آثره من فرحة المعصية ولذتها ، فيفوته الأمران ويحصل على ضد اللذة من الألم المركب من وجود المؤذى وفوت المحبوب ، فالحكم لله العلى الكبير .

---

(١) مسلم (٢٧٤٧ / ٧) فى التوبة ، باب : فى الحض على التوبة والفرح بها .

فصل
فى الفرق بين رقة القلب والجزع

والفرق بين رقة القلب والجزع : أن الجزع ضعف فى النفس وخوف فى القلب ، يمده شدة الطمع والحرص ، ويتولد من ضعف الإيمان بالقدر ، وإلا فمتى علم أن المقدر كائن ولابد ، كان الجزع عناء محضا ، ومصيبة ثانية ، قال تعالى : ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد ، ٢٣]، فمتى آمن العبد بالقدر وعلم أن المصيبة مقدرة فى الحاضر والغائب ، لم يجزع ولم يفرح ، ولا ينافى هذا رقة القلب ، فإنها ناشئة من صفة الرحمة التى هى كمال الله ـ سبحانه ـ إنما يرحم من عباده الرحماء ، وقد كان رسول الله ﷺ أرق الناس قلبا وأبعدهم من الجزع .

فرقة القلب رأفة ورحمة ، وجزعه مرض وضعف ، فالجزع حال قلب مريض بالدنيا قد غشيه دخان النفس الأمارة فأخذ بأنفاسه ، وضيق عليه مسالك الآخرة ، وصار فى سجن الهوى والنفس وهو سجن ضيق الأرجاء مظلم المسالك ، فانحصار القلب وضيقه يجزع من أدنى ما يصيبه ولا يحتمله ، فإذا أشرق فيه نور الإيمان واليقين بالوعد ، وامتلأ من محبة الله وإجلاله رق ، وصارت فيه الرأفة والرحمة ، فتراه رحيما رقيق القلب بكل ذى قربى ومسلم ، يرحم النملة فى جحرها والطير فى وكره ، فضلا عن بنى جنسه ، فهذا أقرب القلوب من الله . قال أنس : « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أرحم الناس بالعيال » .

والله ـ سبحانه ـ إذا أراد أن يرحم عبداً أسكن فى قلبه الرأفة والرحمة ، وإذا أراد أن يعذبه نزع من قلبه الرحمة والرأفة ، وأبدله بهما الغلظة والقسوة . وفى الحديث الثابت : « لا تنزع الرحمة إلا من شقى » (١) ، وفيه : « من لا يرحم لا يرحم » (٢) . وفيه : « ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » (٣)، وفيه « أهل الجنة ثلاثة : ذو

(١) أبو داود (٤٩٤٢) فى الأدب ، باب : فى الرحمة ، والترمذى (١٩٢٣) فى البر والصلة ، باب : ما جاء فى رحمة المسلمين ، وقال : « حسن » ، وأحمد ٢ / ٤٤٢ .

(٢) البخارى (٥٩٩٧) فى الأدب ، باب : رحمة الولد وتقبيله ومعانقته ، ومسلم (٢٣١٨ / ٦٥) فى الفضائل ، باب : رحمته ﷺ بالصبيان والعيال وتواضعه ، وفضل ذلك .

(٣) أبو داود (٤٩٤١) فى الأدب ، باب : فى الرحمة ، والترمذى (١٩٢٤) فى البر والصلة ، باب : فى رحمة المسلمين ، وقال : « حسن صحيح » .

سلطان مقسط متصدق ، ورجل رحيم رقيق القلب بكل ذى قربى ومسلم ، وعفيف متعفف ذو عيال » (١).

والصديق ﷺ إنما فضل الأمة بما كان فى قلبه من الرحمة العامة زيادة على الصديقية؛ ولهذا أظهر أثرها فى جميع مقاماته حتى فى الأسارى يوم بدر ، واستقر الأمر على ما أشار به وضرب له صلى الله عليه وآله وسلم مثلا بعيسى وإبراهيم . والرب ـ سبحانه وتعالى ـ هو الرؤوف الرحيم ، وأقرب الخلق إليه أعظمهم رأفة ورحمة ،كما أن أبعدهم منه من اتصف بضد صفاته : وهذا باب لا يلجه إلا الأفراد فى العالم .

فصل
فى الفرق بين الموجدة والحقد

والفرق بين الموجدة والحقد : أن الوجد الإحساس بالمؤلم ، والعلم به وتحرك النفس فى رفعه فهو كمال .

وأما الحقد ، فهو إضمار الشر وتوقعه كل وقت ، فمن وجدت عليه فلا يزايل القلب أثره ، وفرق آخر وهو أن الموجدة لما ينالك منه ، والحقد لما يناله منك ، فالموجدة وجود ما نالك من أذاه ، والحقد توقع وجود ما يناله من المقابلة ،فالموجدة سريعة الزوال والحقد بطىء الزوال ، والحقد يجىء مع ضيق القلب ، واستيلاء ظلمة النفس ودخانها عليه بخلاف الموجدة فإنها تكون مع قوته وصلابته وقوة نوره وإحساسه .

فصل
فى الفرق بين المنافسة والحسد

والفرق بين المنافسة والحسد : أن المنافسة المبادرة إلى الكمال الذى تشاهد من غيرك ، فتنافسه فيه . حتى تلحقه أو تجاوزه ، فهى من شرف النفس وعلو الهمة ، وكبر القدر ، قال تعالى : ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [المطففين] .

وأصلها من الشىء النفيس الذى تتعلق به النفوس طلبا ورغبة ، فينافس فيه كل من

(١) مسلم (٢٨٦٥ / ٦٣) فى الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب : الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار .

النفسين الأخرى ، وربما فرحت إذا شاركتها فيه ، كما كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتنافسون فى الخير ، ويفرح بعضهم ببعض باشتراكهم فيه ، بل يحض بعضهم بعضا عليه مع تنافسهم فيه ، وهى نوع من المسابقة ، وقد قال تعالى : ﴿ **فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ** ﴾ [البقرة : ١٤٨] ، وقال تعالى : ﴿ **سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ** ﴾ [الحديد : ٢١] .

وكان عمر بن الخطاب يسابق أبا بكر رضي الله عنهما فلم يظفر بسبقه أبدا ، فلما علم أنه قد استولى على الإمامة . قال : والله لا أسابقك إلى شيء أبدا ، وقال : والله ما سابقته إلى خير إلا وجدته قد سبقنى إليه .

والمتنافسان كعبدين بين يدى سيدهما يتباريان ويتنافسان فى مرضاته ويتسابقان إلى محابه ، فسيدهما يعجبه ذلك منهما ، ويحثهما عليه ، وكل منهما يحب الآخر ويحرضه على مرضاة سيده .

والحسد : خلق نفس ذميمة وضيعة ساقطة ، ليس فيها حرص على الخير ، فلعجزها ومهانتها تحسد من يكسب الخير والمحامد ويفوز بها دونها ، ويتمنى أن لو فاته كسبها حتى يساويها فى العدم ، كما قال تعالى : ﴿ **وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً** ﴾ [النساء : ٨٩] ، وقال تعالى : ﴿ **وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ** ﴾ [البقرة :١٠٩] . فالحسود عدو النعمة متمن زوالها عن المحسود كما زالت عنه هو ، والمنافس مسابق النعمة متمن تمامها عليه وعلى من ينافسه فهو ينافس غيره ، أن يعلو عليه ويحب لحاقه به ، أو مجاوزته له فى الفضل . والحسود يحب انحطاط غيره حتى يساويه فى النقصان ، وأكثر النفوس الفاضلة الخيرة تنتفع بالمنافسة ، فمن جعل نصب عينيه شخصا من أهل الفضل والسبق فنافسه انتفع به كثيراً ، فإنه يتشبه به ويطلب اللحاق به والتقدم عليه ، وهذا لا نذمه وقد يطلق اسم الحسد على المنافسة المحمودة،كما فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم: « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار ، ورجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق »(١) .

فهذا حسد منافسة وغبطة يدل على علو همة صاحبه وكبر نفسه وطلبها للتشبه بأهل الفضل .

---

(١) مسلم (٨١٥ / ٢٦٦) فى صلاة المسافرين وقصرها ، باب : فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه .

فصل
فى الفرق بين حب الرياسة وحب الإمارة

والفرق بين حب الرياسة وحب الإمارة للدعوة إلى الله : هو الفرق بين تعظيم أمر الله والنصح له وتعظيم النفس والسعى فى حظها ، فإن الناصح لله المعظم له المحب له ، يجب أن يطاع ربه فلا يعصى ، وأن تكون كلمته هى العليا وأن يكون الدين كله لله ، وأن يكون العباد ممتثلين أوامره مجتنبين نواهيه ، فقد ناصح الله فى عبوديته وناصح خلقه فى الدعوة إلى الله ، فهو يحب الإمامة فى الدين ، بل يسأل ربه أن يجعله للمتقين إماما يقتدى به المتقون ، كما اقتدى هو بالمتقين ، فإذا أحب هذا العبد الداعى إلى الله أن يكون فى أعينهم جليلا ، وفى قلوبهم مهيبًا ، وإليهم حبيباً ، وأن يكون فيهم مطاعا لكى يأتموا به ويقتفوا أثر الرسول على يده ، لم يضره ذلك ، بل يحمد عليه ، لأنه داع إلى الله ،يحب أن يطاع ويعبد ويوحد ، فهو يحب ما يكون عوناً على ذلك موصلا إليه ؛ ولهذا ذكر ـ سبحانه ـ عباده الذين اختصهم لنفسه ، وأثنى عليهم فى تنزيله ، وأحسن جزاءهم يوم لقائه فذكرهم بأحسن أعمالهم وأوصافهم ، ثم قال :

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الفرقان] . فسألوه أن يقر أعينهم بطاعة أزواجهم وذرياتهم له ـ سبحانه ـ وأن يسر قلوبهم باتباع المتقين له على طاعته وعبوديته . فإن الإمام والمؤتم متعاونان على الطاعة ، فإنما سألوه ما يعاونون به المتقين على مرضاته وطاعته ، وهو دعوتهم إلى الله بالإمامة فى الدين التى أساسها الصبر واليقين ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [السجدة] . وسؤالهم أن يجعلهم أئمة للمتقين هو سؤال أن يهديهم ويوفقهم ويمن عليهم بالعلوم النافعة والأعمال الصالحة ظاهراً وباطناً التى لا تتم الإمامة إلا بها .

وتأمل كيف نسبهم فى هذه الآيات إلى اسمه الرحمن جل جلاله ليعلم خلقه أن هذا إنما نالوه بفضل رحمته ومحض جوده ومنته ، وتأمل كيف جعل جزاءهم فى هذه السورة الغرف وهى المنازل العالية فى الجنة ، لما كانت الإمامة فى الدين من الرتب العالية ، بل من أعلى مرتبة يعطاها العبد فى الدين ، كان جزاؤه عليها الغرفة العالية فى الجنة ، وهذا بخلاف طلب الرياسة ، فإن طلابها يسعون فى تحصيلها لينالوا بها أغراضهم من العلو فى الأرض ، وتعبد القلوب لهم وميلها إليهم ومساعدتهم لهم على جميع أغراضهم ، مع

كونهم عالين عليهم قاهرين لهم ، فترتب على هذا المطلب من المفاسد ما لا يعلمه إلا الله من البغى والحسد والطغيان والحقد والظلم والفتنة والحمية للنفس ، دون حق الله وتعظيم من حقره الله ، واحتقار من أكرمه الله ، ولا تتم الرياسة الدنيوية إلا بذلك ، ولا تنال إلا به وبأضعافه من المفاسد ، والرؤساء فى عمى عن هذا ، فإذا كشف الغطاء تبين لهم فساد ما كانوا عليه ، ولاسيما إذا حشروا فى صور الذر يطؤهم أهل الموقف بأرجلهم إهانة لهم، وتحقيراً وتصغيراً كما صغروا أمر الله وحقروا عباده .

فصل
فى الفرق بين الحب فى الله والحب مع الله

والفرق بين الحب فى الله والحب مع الله ـ وهذا من أهم الفروق ، وكل أحد محتاج بل مضطر إلى الفرق بين هذا وهذا ـ فالحب فى الله : هو من كمال الإيمان . والحب مع الله : هو عين الشرك .

والفرق بينهما أن المحب فى الحب تابع لمحبة الله ، فإذا تمكنت محبته من قلب العبد ، أوجبت تلك المحبة أن يحب ما يحبه الله ، فإذا أحب ما أحبه ربه ووليه ، كان ذلك الحب له ، وفيه كما يحب رسله وأنبياءه وملائكته وأولياءه ، لكونه تعالى يحبهم ويبغض من بغضهم ، لا لكونه تعالى يبغضهم . وعلامة هذا الحب والبغض فى الله أنه لا ينقلب بغضه لبغيض الله حباً لإحسانه إليه ، وخدمته له ، وقضاء حوائجه ، ولا ينقلب حبه لحبيب الله بغضاً إذا وصل إليه من جهته ما يكرهه ، ويؤلمه إما خطأ وإما عمداً ، مطيعًا لله فيه أو متأولا أو مجتهداً أو باغياً نازعاً بائناً .

والدين كله يدور على أربع قواعد : حب ، وبغض ، ويترتب عليهما فعل وترك ، فمن كان حبه وبغضه وفعله وتركه لله ، فقد استكمل الإيمان بحيث إذا أحب أحب لله ، وإذا أبغض أبغض لله ، وإذا فعل فعل لله ، وإذا ترك ترك لله ، وما نقص من إضافة هذه الأربعة نقص من إيمانه ودينه بحسبه ، وهذا بخلاف الحب مع الله فهو نوعان : نوع يقدح فى أصل التوحيد ، وهو شرك . ونوع يقدح فى كمال الإخلاص ومحبة الله ولا يخرج من الإسلام .

فالأول : كمحبة المشركين لأوثانهم وأندادهم ، قال تعالى : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ** ﴾ [البقرة : ١٦٥] ، وهؤلاء المشركون يحبون أوثانهم

وأصنامهم وآلهتم مع الله ، كما يحبون الله . فهذه محبة تأله وموالاة يتبعها الخوف والرجاء والعبادة والدعاء ، وهذه المحبة هى محض الشرك الذى لا يغفره الله ولا يتم الإيمان إلا بمعاداة هذه الأنداد وشدة بغضها وبغض أهلها ، ومعاداتهم ومحاربتهم ، وبذلك أرسل الله جميع رسله وأنزل جميع كتبه ، وخلق النار لأهل هذه المحبة الشركية ، وخلق الجنة لمن حارب أهلها وعاداهم فيه ، وفى مرضاته ، فكل من عبد شيئاً من لدن عرشه إلى قرار أرضه ، فقد اتخذ من دون الله إلهاً ولياً وأشرك به كائنًا ذلك المعبود ما كان ، ولابد أن يتبرأ منه أحوج ما كان إليه .

والنوع الثانى : محبة ما زينه الله للنفوس من النساء والبنين والذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، فيحبها محبة شهوة كمحبة الجائع للطعام ، والظمآن للماء . فهذه المحبة ثلاثة أنواع ، فإن أحبها لله توصلا بها إليه واستعانة على مرضاته وطاعته ، أثيب عليها ، وكانت من قسم الحب لله توصلا بها إليه ، ويلتذ بالتمتع بها ، وهذا حال أكمل الخلق الذى حبب إليه من الدنيا النساء والطيب . لموافقة طبعه وهواه وإرادته ، ولم يؤثرها على ما يحبه الله ويرضاه ، بل نالها بحكم الميل الطبيعى كانت من قسم المباحات ولم يعاقب على ذلك ، ولكن ينقص من كمال محبته لله والمحبة فيه ، وإن كانت هى مقصوده ومراده وسعيه فى تحصيلها أو الظفر بها ، وقدمها على ما يحبه الله ويرضاه منه كان ظالما لنفسه متبعاً لهواه .

فالأولى . محبة السابقين ، والثانية : محبة المقتصدين ، والثالثة : محبة الظالمين . فتأمل هذا الموضع وما فيه من الجمع والفرق ، فإنه معترك النفس الأمارة والمطمئنة ، والمهدى من هداه الله .

فصل
فى الفرق بين التوكل والعجز

والفرق بين التوكل والعجز : أن التوكل عمل القلب وعبوديته اعتماداً على الله وثقة به والتجاء إليه ، وتفويضا إليه ، ورضا بما يقضيه له لعلمه بكفايته ـ سبحانه ـ وحسن اختياره لعبده ، إذا فوض إليه مع قيامه بالأسباب المأمور بها واجتهاده فى تحصيلها، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعظم المتوكلين ، وكان يلبس لأمته ودرعه، بل ظاهر يوم أحد بين درعين ، واختفى فى الغار ثلاثاً ، فكان متوكلا فى السبب لا على السبب .

وأما العجز ، فهو تعطيل الأمرين أو أحدهما ، فإما أن يعطل السبب عجزاً منه ويزعم أن ذلك توكل ، ولعمر الله إنه لعجز وتفريط ، وإما أن يقوم بالسبب ناظرًا إليه معتمدًا عليه غافلاً عن المسبب معرضاً عنه ، وإن خطر بباله لم يثبت معه ذلك الخاطر ، ولم يعلق قلبه به تعلقاً تاماً ،بحيث يكون قلبه مع الله وبدنه مع السبب. فهذا توكله عجز وعجزه توكل ، وهذا موضع انقسم فيه الناس طرفين ووسطا .

فأحد الطرفين : عطل الأسباب محافظة على التوكل .

والثانى : عطل التوكل محافظة على السبب .

والوسط : علم أن حقيقة التوكل لا يتم إلا بالقيام بالسبب ، فتوكل على الله فى نفس السبب ، وأما من عطل السبب وزعم أنه متوكل فهو مغرور مخدوع متمن ، كمن عطل النكاح والتسرى وتوكل فى حصول الولد وعطل الحرث والبذر وتوكل فى حصول الزرع ، وعطل الأكل والشرب وتوكل فى حصول الشبع والرى . فالتوكل نظير الرجاء ، والعجز نظير التمنى .

فحقيقة التوكل : أن يتخذ العبد ربه وكيلا له ، قد فوض إليه كما يفوض الموكل إلى وكيله ، العالم بكفايته ونهضته ونصحه وأمانته وخبرته وحسن اختياره ، والرب ـ سبحانه ـ قد أمر عبده بالاحتيال وتوكل له أن يستخرج له من حيلته ما يصلحه ، فأمره أن يحرث ويبذر ويسعى ويطلب رزقه فى ضمان ذلك ، كما قدره ـ سبحانه ـ ودبره واقتضته حكمته وأمره ألا يعلق قلبه بغيره ، بل يجعل رجاءه له وخوفه منه وثقته به وتوكله عليه ، وأخبره أنه ـ سبحانه ـ الملىء بالوكالة الوفى بالكفالة ، فالعاجز من رمى هذا كله وراء ظهره ، وقعد كسلان طالبا للراحة ، مؤثراً للدعة يقول : الرزق يطلب صاحبه كما يطلبه أجله ، وسيأتينى ما قدر لى على ضعفى ، ولن أنال ما لم يقدر لى مع قوتى ، ولو أنى هربت من رزقى كما أهرب من الموت للحقنى . فيقال له : نعم ، هذا كله حق ، وقد علمت أن الرزق مقدر ، فما يدريك كيف قدر لك بسعيك أم بسعى غيرك ، وإذا كان بسعيك فبأى سبب ومن أى وجه . وإذا خفى عليك هذا كله ، فمن أين علمت أنه يقدر لك إتيانه عفوا بلا سعى ولا كد ؟ فكم من شىء سعيت فيه فقدر لغيرك ، وكم من شىء سعى فيه غيرك فقدر لك رزقا ، فإذا رأيت هذا عيانا فكيف علمت أن رزقك كله بسعى غيرك .

وأيضاً ، فهذا الذى أوردته عليك النفس يجب عليك طرده فى جميع الأسباب مع

مسبباتها ، حتى فى أسباب دخول الجنة والنجاة من النار ، فهل يعطلها اعتماداً على التوكل، أم يقوم بها مع التوكل ، بلى لن تخلو الأرض من متوكل صبر نفسه لله ، وملأ قلبه من الثقة به ورجاءه وحسن الظن به ، فضاق قلبه مع ذلك عن مباشرة بعض الأسباب، فسكن قلبه إلى الله واطمأن إليه ، ووثق به ، وكان هذا من أقوى أسباب حصول رزقه ، فلم يعطل السبب ، وإنما رغب عن سبب إلى سبب أقوى منه ، فكان توكله أوثق الأسباب عنده ، فكان اشتغال قلبه بالله وسكونه إليه وتضرعه إليه أحب إليه من اشتغاله بسبب يمنعه من ذلك ، أو من كماله ، فلم يتسع قلبه للأمرين ، فأعرض عن أحدهما إلى الآخر .

ولا ريب أن هذا أكمل حالا ممن امتلأ قلبه بالسبب ، واشتغل به عن ربه ، وأكمل منهما من جمع الأمرين ، وهى حال الرسل والصحابة ، فقد كان زكريا نجارًا ، وقد أمر الله نوحاً أن يصنع السفينة ، ولم يكن فى الصحابة من يعطل السبب اعتمادا على التوكل، بل كانوا أقوم الناس بالأمرين . ألا ترى أنهم بذلوا جهدهم فى محاربة أعداء الدين بأيديهم وألسنتهم ، وقاموا فى ذلك بحقيقة التوكل ، وعمروا أموالهم وأصلحوها ، وأعدوا لأهليهم كفايتهم من القوت ، اقتداء بسيد المتوكلين ، صلوات الله وسلامه عليه وآله .

فصل
فى الفرق بين الاحتياط والوسوسة

والفرق بين الاحتياط والوسوسة :أن الاحتياط الاستقصاء والمبالغة فى اتباع السنة ، وما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه من غير غلو ومجاوزة ولا تقصير ولا تفريط . فهذا هو الاحتياط الذى يرضاه الله ورسوله .

وأما الوسوسة ، فهى ابتداع ما لم تأت به السنة ، ولم يفعله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا أحد من الصحابة ، زاعما أنه يصل بذلك إلى تحصيل المشروع وضبطه، كمن يحتاط بزعمه ويغسل أعضاءه فى الوضوء فوق الثلاثة ، فيسرف فى صب الماء فى وضوئه وغسله، ويصرح بالتلفظ بنية الصلاة مرارا أو مرة واحدة ؛ ويغسل ثيابه مما لا يتيقن نجاسته احتياطا،ويرغب عن الصلاة فى نعله احتياطاً إلى أضعاف أضعاف هذا . مما اتخذه الموسوسون دينا وزعموا أنه احتياط ؛ وقد كان الاحتياط باتباع هدى رسول الله عليه

وآله وسلم وما كان عليه أولى بهم ، فإنه الاحتياط الذى من خرج عنه فقد فارق الاحتياط؛ وعدل عن سواء الصراط ؛ والاحتياط كل الاحتياط الخروج عن خلاف السنة ؛ ولو خالفت أكثر أهل الأرض بل كلهم .

فصل
فى الفرق بين إلهام الملك وإلقاء الشيطان

والفرق بين إلهام الملك وإلقاء الشيطان من وجوه :

منها : أن ما كان لله موافقاً لمرضاته وما جاء به رسوله فهو من الملك ، وما كان لغيره غير موافق لمرضاته فهو من إلقاء الشيطان .

ومنها : أن ما أثمر إقبالا على الله وإنابة إليه وذكراً له وهمة صاعدة إليه فهو من إلقاء الملك ، وما أثمر ضد ذلك فهو من الشيطان .

ومنها : أن ما أورث أنسا ونورا فى القلب وانشراحاً فى الصدر فهو من الملك ، وما أورث ضد ذلك فهو من الشيطان .

ومنها : أن ما أورث سكينة وطمأنينة فهو من الملك ، وما أورث قلقاً أو انزعاجاً واضطرابا فهو من الشيطان .

فالإلهام الملكى يكثر فى القلوب الطاهرة النقية التى قد استنارت بنور الله ؛ فالملك بها اتصال ، وبينه وبينها مناسبة ؛ فإنه طيب طاهر لا يجاور إلا قلباً يناسبه ؛ فتكون لمة الملك بهذا القلب أكثر من لمة الشيطان ، وأما القلب المظلم الذى قد اسود بدخان الشهوات والشبهات ، فإلقاء الشيطان ولمته به أكثر من لمة الملك .

فصل
فى الفرق بين الاقتصاد والتقصير

والفرق بين الاقتصاد والتقصير: أن الاقتصاد هو التوسط بين طرفى الإفراط والتفريط، وله طرفان هما ضدان له: تقصير ومجاوزة ، فالمقتصد قد أخذ بالوسط، وعدل عن الطرفين، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الفرقان] ،

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ [الإسراء : ٢٩] ، وقال تعالى : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ [الأعراف : ٣١] .

والدين كله بين هذين الطرفين ،بل الإسلام قصد بين الملل ، والسنة قصد بين البدع ، ودين الله بين الغالى فيه والجافى عنه ، وكذلك الاجتهاد هو بذل الجهد وموافقة الأمر . والغلو مجاوزته وتعديه وما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان،فإما إلى غلو ومجاوزة ، وإما تفريط وتقصير ، وهما آفتان لا يخلص منهما فى الاعتقاد والقصد والعمل إلا من مشى خلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وترك أقوال الناس وآراءهم لما جاء به لا من ترك ما جاء به لأقوالهم وآرائهم ، وهذان المرضان الخطران قد استوليا على أكثر بنى آدم ، ولهذا حذر السلف منهما أشد التحذير ، وخوفوا من بُلى بأحدهما بالهلاك ، وقد يجتمعان فى الشخص الواحد،كما هو حال أكثر الخلق يكون مقصراً مفرطا فى بعض دينه، غاليا متجاوزاً فى بعضه ، والمهدى من هداه الله .

فصل
فى الفرق بين النصيحة والتأنيب

والفرق بين النصيحة والتأنيب : أن النصيحة إحسان إلى من تنصحه بصورة الرحمة له والشفقة عليه والغيرة له وعليه ، فهو إحسان محض يصدر عن رحمة ورقة ، ومراد الناصح بها وجه الله ورضاه . والإحسان إلى خلقه . فيتلطف فى بذلها غاية التلطف ، ويحتمل أذى المنصوح ولائمته ويعامله معاملة الطبيب العالم المشفق والمريض المشبع مرضا. وهو يحتمل سوء خلقه وشراسته ونفرته ، ويتلطف فى وصول الدواء إليه بكل ممكن ، فهذا شأن الناصح .

وأما المؤنب ،فهو رجل قصده التعيير والإهانة وذم من أنبه وشتمه فى صورة النصح ، فهو يقول له : يا فاعل كذا وكذا ، يا مستحقا للذم والإهانة فى صورة ناصح مشفق ، وعلامة هذا : أنه لو رأى من يحبه ويحسن إليه على مثل عمل هذا أو شر منه لم يعرض له،ولم يقل له شيئا،ويطلب له وجوه المعاذير. فإن غلب قال : وأنى ضمنت له العصمة ، والإنسان عرضة للخطأ ومحاسنه أكثر من مساوئه ، والله غفور رحيم ، ونحو ذلك .

فيا عجبا ، كيف كان هذا لمن يحبه دون من يبغضه ؛ وكيف كان حظ ذلك منك

التأنيب فى صورة النصح ، وحظ هذا منك رجاء العفو والمغفرة ، وطلب وجوه المعاذير .

ومن الفرق بين الناصح والمؤنب: أن الناصح لا يعاديك إذا لم تقبل نصيحته ، وقال : قد وقع أجرى على الله، قبلت أو لم تقبل ، ويدعو لك بظهر الغيب ، ولا يذكر عيوبك ، ولا يبينها فى الناس ، والمؤنب بضد ذلك .

فصل
فى الفرق بين المبادرة والعجلة

والفرق بين المبادرة والعجلة : أن المبادرة انتهاز الفرصة فى وقتها ولا يتركها ، حتى إذا فاتت طلبها فهو لا يطلب الأمور فى أدبارها ولا قبل وقتها ، بل إذا حضر وقتها بادر إليها ووثب عليها وثوب الأسد على فريسته ، فهو بمنزلة من يبادر إلى أخذ الثمرة ، وقت كمال نضجها وإدراكها .

والعجلة : طلب أخذ الشيء قبل وقته ، فهو لشدة حرصه عليه بمنزلة من يأخذ الثمرة قبل أوان إدراكها .

فالمبادرة : وسط بين خلقين مذمومين : أحدهما : التفريط والإضاعة ، والثانى : الاستعجال قبل الوقت ؛ ولهذا كانت العجلة من الشيطان ، فإنها خفة وطيش ، وحدة فى العبد تمنعه من التثبت والوقار والحلم وتوجب له وضع الأشياء فى غير مواضعها ، وتجلب عليه أنواعا من الشرور ، وتمنعه أنواعا من الخير ، وهى قرين الندامة ، فقل من استعجل إلا ندم ، كما أن الكسل قرين الفوت والإضاعة .

فصل
فى الفرق بين الإخبار بالحال وبين الشكوى

والفرق بين الإخبار بالحال وبين الشكوى ـ وإن اشتبهت صورتهما: أن الإخبار بالحال : يقصد المخبر به قصدًا صحيحًا من علم سبب إدانته ، أو الاعتذار لأخيه من أمر طلبه منه ، أو يحذره من الوقوع فى مثل ما وقع فيه فيكون ناصحا بإخباره له أو حمله على الصبر بالتأسى به ، كما يذكر عن الأحنف أنه شكا إليه رجل شكوى ، فقال : يابن أخى ، لقد

ذهب ضوء عينى من كذا وكذا سنة ، فما أعلمت به أحداً .

ففى ضمن هذا الإخبار من حمل الشاكى على التأسى والصبر ما يثاب عليه المخبر وصورته صورة الشكوى ، ولكن القصد ميز بينهما . ولعل من هذا قول النبى صلى الله عليه وآله وسلم ـ لما قالت عائشة : وارأساه ، فقال : « بل أنا وارأساه » (١) أى الوجع القوى بى أنا دونك ، فتأسى بى فلا تشتكى . ويلوح لى فيه معنى آخر ، وهو أنها كانت حبيبة رسول الله ﷺ ، بل كانت أحب النساء إليه على الإطلاق ، فلما شكت إليه رأسها أخبرها أن بمحبها من الألم مثل الذى بها ، وهذا غاية الموافقة من المحب ومحبوبه ، يتألم بتألمه ، ويسر بسروره ، حتى إذا آلمه عضو من أعضائه آلم المحب ذلك العضو بعينه ، وهذا من صدق المحبة وصفاء المودة .

فالمعنى الأول : يفهم أنك لا تشتكى واصبرى ، فبى من الوجع مثل ما بك ، فتأسى بى فى الصبر وعدم الشكوى .

والمعنى الثانى : يفهم إعلامها بصدق محبته لها : أى انظرى قوة محبتى لك كيف واسيتك فى ألمك ووجع رأسك ، فلم تكونى متوجعة وأنا سليم من الوجع ، يؤلمنى ما يؤلمك ، كما يسرنى ما يسرك .

كما قيل :

وإن أولى البرايا أن تواسيه ... عند السرور الذى واساك فى الحزن

وأما الشكوى، فالإخبار العارى عن القصد الصحيح، بل يكون مصدره السخط وشكاية المبتلى إلى غيره ، فإن شكا إليه ـ سبحانه وتعالى ـ لم يكن ذلك شكوى ، بل استعطاف وتملق واسترحام له، كقول أيوب: ﴿ رَبِّ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الأنبياء]، وقول يعقوب: ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ [يوسف : ٨٦]، وقول موسى: « اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكى ، وأنت المستعان ، وبك المستغاث، وعليك التكلان ، ولا حول ولا قوة إلا بك » (٢)، وقول سيد ولد آدم : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى ،

---

(١) أحمد (٦ / ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٨) ، وأبو يعلى (٤٩٦٢) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٩ / ٣٥ ، ٣٦) : « رجال أحمد ثقات ، وفى إسناد أبى يعلى عوبد بن أبى عمران وثقه ابن حبان ، وضعفه الجمهور ، وقال بعضهم : متروك » .

(٢) الطبرانى فى الأوسط (٣٣٩٤) ، والصغير (٣٣٩) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠ / ١٨٦) : « فيه من لم أعرفهم » .

وهوانى على الناس ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ، أو إلى عدو ملكته أمرى ، إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى ، غير أن عافيتك أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن يحل على غضبك ، أو ينزل بى سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك »(١) .

فالشكوى إلى الله ـ سبحانه ـ لا تنافى الصبر بوجه ، فإن الله تعالى قال عن أيوب : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [ص]، مع إخباره عنه بالشكوى إليه فى قوله : ﴿ مَسَّنِيَ الضُّرُّ ﴾ ، وأخبر عن نبيه يعقوب أنه وعد من نفسه بالصبر الجميل ، والنبى إذا قال وفى ،مع قوله : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ ولم يجعل ذلك نقصًا لصبره ، ولا يلتفت إلى غير هذا من ترهات القوم .

كما قال بعضهم : لما قال : مسنى الضر ، قال تعالى :﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ﴾ . ولم يقل : صبورًا حيث قال : مسنى الضر .

وقال بعضهم : لم يقل : ارحمنى ، وإنما قال : أنت أرحم الراحمين ، فلم يزد على الإخبار بحاله ، ووصف ربه .

وقال : بعضهم : إنما شكا مس الضر ، حين ضعف لسانه عن الذكر ، فشكا مس ضر ضعف الذكر لا ضر المرض والألم .

وقال بعضهم : استخرج منه هذا القول ليكون قدوة للضعفاء من هذه الأمة ، وكأن هذا القائل رأى أن الشكوى إلى الله تنافى الصبر ، وغلط أقبح الغلط ، فالمنافى للصبر شكواه لا الشكوى إليه ، فالله يبتلى عبده ليسمع تضرعه ودعاءه والشكوى إليه ، ولا يحب التجلد عليه وأحب ما إليه انكسار قلب عبده بين يديه ، وتذلله له وإظهار ضعفه وفاقته وعجزه ، وقلة صبره ، فاحذر كل الحذر من إظهار التجلد عليه ، وعليك بالتضرع والتمسكن وإبداء العجز ، والفاقة والذل والضعف ، فرحمته أقرب إلى هذا القلب من اليد للفم(٢) .

---

(١) ابن هشام فى السيرة النبوية (٢ / ٦٨) ، فى سعى الرسول إلى الطائف وموقف ثقيف منه .
(٢) الروح (٣٤٧ ـ ٣٨٤) .

فصل
فى الفرق بين توحيد المرسلين وتوحيد المعطلين

الفرق بين توحيد المرسلين وتوحيد المعطلين : أن توحيد الرسل : إثبات صفات الكمال لله على وجه التفصيل وعبادته وحده لا شريك له فلا يجعل له ندًا فى قصد ولا حب ولا خوف ولا رجاء ، ولا لفظ ولا حلف ، ولا نذر ، بل يرفع العبد الأنداد له من قلبه وقصده ولسانه وعبادته ، كما أنها معدومة فى نفس الأمر لا وجود لها البتة ، فلا يجعل لها وجودًا فى قلبه ولا لسانه .

وأما توحيد المعطلين ، فنفى حقائق أسمائه وصفاته وتعطيلها ، ومن أمكنه منهم تعطيلها من لسانه عطلها،فلا يذكرها ولا يذكر آية تتضمنها ، ولا حديثًا يصرح بشىء منها ، ومن لم يمكنه تعطيل ذكرها سطا عليها بالتحريف ونفى حقيقتها،وجعلها اسمًا لا معنى له ، أو معناه من جنس الألغاز والأحاجى . على أن من طرد تعطيله منهم علم أنه يلزمه فيما حرف إليه النص من المعنى ، نظير ما فر منه سواء ، فإن لزم تمثيل أو تشبيه أو حدوث فى الحقيقة لزم فى المعنى الذى حمل عليه النص وإن لا يلزم فى هذا فهو أولى ألا يلزم فى الحقيقة ، فلما علم هذا لم يمكنه إلا تعطيل الجميع ، فهذا طرد لأصل التعطيل والمفرق أقرب منه ، ولكنه مناقض يتحكم بالباطل حيث أثبت لله بعض ما أثبته لنفسه ، ونفى عنه البعض الآخر .واللازم الباطل فيهما واحد ، واللازم الحق لا يفرق بينهما . والمقصود أنهم سموا هذا التعطيل توحيدًا،وإنما هو إلحاد فى أسماء الرب تعالى وصفاته وتعطيل لحقائقها .

فصل
فى الفرق بين تنزيه الرسل وتنزيه المعطلة

والفرق بين تنزيه الرسل وتنزيه المعطلة : أن الرسل نزهوه ـ سبحانه ـ عن النقائص والعيوب التى نزه نفسه عنها ، وهى المنافية لكماله وكمال ربوبيته وعظمته ، كالسنة والنوم والغفلة والموت واللغوب والظلم ، وإرادته والتسمى به والشريك والصاحبة والظهير والولد والشفيع بدون إذنه وأن يترك عباده سدى هملا ، وأن يكون خلق السموات والأرض وما بينهما باطلا لا لثواب ولا عقاب ، ولا أمر ولا نهى ، وأن يسوى بين أوليائه وأعدائه ،

وبين الأبرار والفجار وبين الكفار والمؤمنين ، وأن يكون فى ملكه ما لا يشاء ، وأن يحتاج إلى غيره بوجه من الوجوه ، أو يكون لغيره معه من الأمر شيء ، أو يعرض له غفلة أو سهو أو نسيان . وأن يخلف وعده أو تبدل كلماته أو يضاف إليه الشر اسما أو وصفا أو فعلا ، بل أسماؤه كلها حسنى ،وصفاته كلها كمال ، وأفعاله كلها خير وحكمة ومصلحة . فهذا تنزيه الرسل لربهم .

وأما المعطلون ، فنزهوه عما وصف به نفسه من الكمال ، فنزهوه عن أن يتكلم أو يكلم أحداً ونزهوه عن استوائه على عرشه ، وأن ترفع إليه الأيدى ، وأن يصعد إليه الكلم الطيب ، وأن ينزل من عنده شيء أو تعرج إليه الملائكة والروح ، وأن يكون فوق عباده ، وفوق جميع مخلوقاته عاليًا عليها،ونزهوه أن يقبض السموات بيده والأرض باليد الأخرى، وأن يمسك السموات على إصبع ، والأرض على إصبع ، والجبال على إصبع ، والشجر على إصبع ، ونزهوه أن يكون له وجه ، وأن يراه المؤمنون بأبصارهم فى الجنة ، وأن يكلمهم ويسلم عليهم ويتجلى لهم ضاحكا ،وأن ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا ، فيقول : من يستغفرنى فأغفر له ، ومن يسألنى فأعطيه ، فلا نزول عندهم ولا قول ، ونزهوه أن يفعل شيئا لشيء ، بل أفعاله لا لحكمة ولا لغرض مقصود ، ونزهوه أن يكون تام المشيئة نافذ الإرادة ،بل يشاء الشيء ويشاء عباده خلافه ، فيكون ما شاء العبد دون ما شاء الرب ، ولا يشاء الشيء فيكون ما لا يشاء ، ويشاء ما لا يكون . وسموا هذا عدلا كما سموا ذلك التنزيه توحيدًا ، ونزهوه عن أن يُحِب أو يُحَب ، ونزهوه عن الرأفة والرحمة والغضب والرضا ، ونزهه آخرون عن السمع والبصر وآخرون عن العلم . ونزهه آخرون عن الوجود ، فقالوا : الذى فر إليه هؤلاء المنزهون من التشبيه والتمثيل ، يلزمنا فى الوجود فيجب علينا أن ننزهه عنه ، فهذا تنزيه الملحدين والأول تنزيه المرسلين.

فصل

فى الفرق بين حقائق الأسماء والصفات وبين التشبيه والتمثيل

والفرق بين إثبات حقائق الأسماء والصفات وبين التشبيه والتمثيل ، ما قاله الإمام أحمد ، ومن وافقه من أئمة الهدى : أن التشبيه والتمثيل : أن تقول : يد كيدى ، أو سمع كسمعى ، أو بصر كبصرى ، ونحو ذلك .

وأما إذا قلت : سمع وبصر ويد ووجه واستواء لا يماثل شيئًا من صفات المخلوقين ، بل بين الصفة والصفة من الفرق كما بين الموصوف والموصوف فأى تمثيل هاهنا ، وأى تشبيه لولا تلبيس الملحدين ، فمدار الحق الذى اتفقت عليه الرسل على أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تشبيه ولا تمثيل إثبات الصفات ونفى مشابهة المخلوقات ، فمن شبه الله بخلقه فقد كفر ، ومن جحد حقائق ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، ومن أثبت له حقائق الأسماء والصفات ، ونفى عنه مشابهة المخلوقات ، فقد هدى إلى صراط مستقيم .

فصل
فى الفرق بين تجريد التوحيد وبين هضم أرباب المراتب

والفرق بين تجريد التوحيد ، وبين هضم أرباب المراتب : أن تجريد التوحيد : ألا يعطى المخلوق شيئًا من حق الخالق وخصائصه ، فلا يعبد ولا يصلى له ولا يسجد ولا يحلف باسمه ولا ينذر له ولا يتوكل عليه ولا يؤله ولا يقسم به على الله ، ولا يعبد ليقرب إلى الله زلفى ، ولا يساوى برب العالمين فى قول القائل : ما شاء الله وشئت ، وهذا منك ومن الله ، وأنا بالله وبك ، وأنا متوكل على الله وعليك ، والله لى فى السماء وأنت فى الأرض ، وهذا من صدقاتك وصدقات الله ، وأنا تائب إلى الله وإليك ، وأنا فى حسب الله وحسبك ، فيسجد للمخلوق كما يسجد المشركون لشيوخهم ، يحلق رأسه له ويحلف باسمه وينذر له ، ويسجد لقبره بعد موته ، ويستغيث به فى حوائجه ومهماته ، ويرضيه بسخط الله ، ولا يسخطه فى رضا الله ، ويتقرب إليه أعم مما يتقرب إلى الله ، ويحبه ويخافه ويرجوه أكثر مما يحب الله ويخافه ويرجوه أو يساويه ، فإذا هضم المخلوق خصائص الربوبية وأنزله منزلة العبد المحض الذى لا يملك لنفسه فضلا عن غيره ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورا، لم يكن هذا تنقصا له ولا حطا من مرتبته، ولو رغم المشركون.

وقد صح عن سيد ولد آدم صلوات الله وسلامه عليه أنه قال: « لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، فإنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله » (١) ، وقال : « أيها

(١) البخارى (٣٤٤٥) فى الأنبياء ، باب : قول الله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ ... ﴾ ، والدارمى (٢ / ٣٢٠) فى الرقائق ، باب : فى قول النبى ﷺ : « لا تطرونى » ، وأحمد (١ / ٢٣ ، ٤٧ ، ٥٥) .

الناس ، ما أحب أن ترفعونى فوق منزلتى » (١) ، وقال : « لا تتخذوا قبرى عيدا » (٢) ، وقال : « اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد » (٣) ، وقال : « لا تقولوا : ما شاء الله وشاء محمد » (٤) ، وقال له رجل : ما شاء الله وشئت ، فقال : « أجعلتنى لله ندًا ؟ » (٥) ، وقال له رجل قد أذنب : اللهم إنى أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد ، فقال : « عرف الحق لأهله » (٦)،وقد قال الله له : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ [آل عمران : ١٢٨] ، وقال : ﴿ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّه ﴾ [آل عمران : ١٥٤] ، وقال : ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّه ﴾ [يونس : ٤٩] ، وقال : ﴿ قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢) ﴾ [الجن] ، أى لن أجد من دونه من ألتجئ إليه وأعتمد عليه .

وقال لابنته فاطمة وعمه العباس وعمته صفية : « لا أملك لكم من الله شيئًا » (٧) ، وفى لفظ فى الصحيح : « لا أغنى عنكم من الله شيئا » (٨) . فعظم ذلك على المشركين بشيوخهم وآلهتهم وأبوا ذلك كله ، ادعوا لشيوخهم ومعبوديهم خلاف هذا كله ، وزعموا أن من سلبهم ذلك فقد هضمهم مراتبهم وتنقصهم ، وقد هضموا جانب الإلهية غاية الهضم وتنقصوه ، فلهم نصيب وافر من قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥) ﴾ [الزمر] .

---

(١) الطبرانى فى الكبير ٣ / ١٢٨ (٢٨٨٩) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٩/ ٢٤) : « إسناده حسن » ، كلاهما بلفظ « لا ترفعونى فوق حقى . . . » .

(٢) أحمد (٢ / ٣٦٧) ، وأبو يعلى (٤٦٩) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٤ / ٦) : « فيه حفص بن إبراهيم الجعفرى ، ذكره ابن أبى حاتم ولم يذكر فيه جرحا وبقية رجاله ثقات » ، ورواه أبو داود عن أبى هريرة (٢٠٤٢) فى النكاح ، باب : زيارة القبور .

(٣) أحمد (٢ / ٢٤٦) ، وأبو يعلى (٨٤١) ، وقال الهيثمى فى المجمع ٤ / ٥ : « فيه إسحاق بن أبى إسرائيل وفيه كلام لوقفه وبقية رجاله ثقات » .

(٤) الدارمى (٢ / ٢٩٥) فى الرقائق ، باب : فى تغيير الأسماء ، والحاكم فى المستدرك (٣ / ٤٦٢ ، ٤٦٣) ، وقال : « خالفه حماد بن سلمة عن عبد الملك بن عمير » وسكت عنه الذهبى .

(٥) أحمد (١ / ٢١٤) ، وقال الشيخ أحمد شاكر (١٨٣٩) : « إسناده صحيح » .

(٦) أحمد (١ / ٤٣٥) ، والطبرانى فى الكبير ١ / ٢٨٦ (٨٣٩) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠ / ٢٠٢) : « فيه محمد بن مصعب وثقه أحمد وضعفه غيره وبقية رجاله رجال الصحيح » .

(٧) مسلم (٢٠٤ / ٣٤٨) فى الإيمان ، باب : فى قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ ، وأحمد ٢ / ٣٣٣ ، ٣٩٩ .

(٨) البخارى (٣٧٥٣) فى الوصايا ، باب : هل يدخل النساء والولد فى الأقارب ؟ ومسلم (٢٠٦ / ٣٥١) فى الإيمان ، باب : فى قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ .

فصل
فى الفرق بين تجريد متابعة المعصوم صلى الله عليه وآله وسلم وإهدار أقوال العلماء وإلغائها

والفرق بين تجريد متابعة المعصوم صلى الله عليه وآله وسلم ، وإهدار أقوال العلماء وإلغائها : أن تجريد المتابعة ألا تقدم على ما جاء به قول أحد ، ولا رأيه كائنا من كان ، بل تنظر فى صحة الحديث أولا ، فإذا صح لك نظرت فى معناه ثانيًا ، فإذا تبين لك لم تعدل عنه ، ولو خالفك من بين المشرق والمغرب . ومعاذ الله أن تتفق الأمة على مخالفة ما جاء به نبيها ، بل لابد أن يكون فى الأمة من قال به ، ولو لم تعلمه فلا تجعل جهلك بالقائل به حجة على الله ورسوله ،بل اذهب إلى النص ولا تضعف . واعلم أنه قد قال به قائل قطعًا ، ولكن لم يصل إليك هذا ، مع حفظ مراتب العلماء وموالاتهم واعتقاد حرمتهم وأمانتهم واجتهادهم،فى حفظ الدين وضبطه . فهم دائرون بين الأجر والأجرين والمغفرة ، ولكن لا يوجب هذا إهدار النصوص وتقديم قول الواحد منهم عليها لشبهة أنه أعلم بها منك .

فإن كان كذلك فمن ذهب إلى النص أعلم به منك فهلا وافقته إن كنت صادقاً ، فمن عرض أقوال العلماء على النصوص ووزنها بها ، وخالف منها ما خالف النص لم يهدر أقوالهم ، ولم يهضم جانبهم بل اقتدى بهم ، فإنهم كلهم أمروا بذلك فمتبعهم حقًا من امتثل ما أوصوا به لا من خالفهم فخلافهم فى القول الذى جاء النص بخلافه ، أسهل من مخالفتهم فى القاعدة الكلية ، التى أمروا أو دعوا إليها من تقديم النص على أقوالهم .

ومن هنا يتبين الفرق بين تقليد العالم فى كل ما قال ، وبين الاستعانة بفهمه والاستضاءة بنور علمه ، فالأول يأخذ قوله من غير نظر فيه ولا طلب لدليله من الكتاب والسنة ، بل يجعل ذلك كالحبل الذى يلقيه فى عنقه يقلده به . ولذلك سمى تقليداً بخلاف من استعان بفهمه واستضاء بنور علمه فى الوصول إلى الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فإنه يجعلهم بمنزلة الدليل إلى الدليل الأول ، فإذا وصل إليه استغنى بدلالته عن الاستدلال بغيره ، فمن استدل بالنجم على القبلة فإنه إذا شاهدها لم يبق لاستدلاله بالنجم معنى .

قال الشافعى : أجمع الناس على أن ما استبانت له سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن له أن يدعها لقول أحد .

فصل
فى الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان

والفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان : أن أولياء الرحمن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، هم الذين آمنوا وكانوا يتقون ، وهم المذكورون فى أول سورة البقرة إلى قوله : ﴿ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥ ﴾ [البقرة] وفى وسطها فى قوله : ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ إلى قوله : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ۝١٧٧ ﴾ [البقرة] ، وفى أول الأنفال إلى قوله : ﴿ لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤ ﴾ [الأنفال] ، وفى أول سورة المؤمنين إلى قوله : ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١١ ﴾ [المؤمنون] وفى آخر سورة الفرقان . وفى قوله : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾ إلى آخر الآية [الأحزاب : ٣٥] ، وفى قوله : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۝٦٣ ﴾ [يونس]، وفى قوله : ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ۝٥٢ ﴾ [النور] ،وفى قوله : ﴿ إِلاَّ الْمُصَلِّينَ ۝٢٢ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ ۝٢٣ ﴾ إلى قوله : ﴿ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ ۝٣٥ ﴾ [المعارج] ،وفى قوله : ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ ﴾ إلى آخر الآية [التوبة : ١١٢] .

فأولياء الرحمن هم المخلصون لربهم المحكمون لرسوله فى الحرم والحل، الذين يخالفون غيره لسنته ، ولا يخالفون سنته لغيرها ، فلا يبتدعون ولا يدعون إلى بدعة ، ولا يتحيزون إلى فئة غير الله ورسوله وأصحابه ، ولا يتخذون دينهم لهوًا ولعبًا ولا يستحبون سماع الشيطان على سماع القرآن ، ولا يؤثرون صحبة الأفتان على مرضاة الرحمن ، ولا المعازف والمثانى ، على السبع المثانى .

برئنا إلى الله من معشر ... بهم مرض مورد للضنا
وكم قلت :يا قوم أنتم على ... شفا جرف من سماع الغنا
فلما استهانوا بتنبيهنا ... تركنا غويا وما قد جنا
وهل يستجيب لداعى الهدى ... غوىّ أصار الغنا ديدنا
فعشنا على ملة المصطفى ... وماتوا على تاننا تتنا

ولا يشتبه أولياء الرحمن بأولياء الشيطان إلا على فاقد البصيرة والإيمان ، وأنى يكون

المعرضون عن كتابه وهدى رسوله وسنته المخالفون له إلى غيره أولياءه ، وقد ضربوا لمخالفته جأشا ، وعدلوا عن هدى نبيه وطريقته: ﴿ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأنفال] .

فأولياء الرحمن : المتلبسون بما يحب وليهم الداعون إليه المحاربون لمن خرج عنه .

وأولياء الشيطان : المتلبسون بما يحبه وليهم قولا وعملا ، يدعون إليه ويحاربون من نهاهم عنه ، فإذا رأيت الرجل يحب السماع الشيطانى ومؤذن الشيطان وإخوان الشياطين ، ويدعو إلى ما يحبه الشيطان من الشرك والبدع والفجور ، علمت أنه من أوليائه ، فإن اشتبه عليك فاكشفه فى ثلاثة مواطن فى صلاته ، ومحبته للسنة وأهلها ونفرته عنهم ودعوته إلى الله ورسله وتجريد التوحيد والمتابعة وتحكيم السنة ، فزنه بذلك لا تزنه بحال ، ولا كشف ولا خارق ، ولو مشى على الماء وطار فى الهواء .

فصل
فى الفرق بين الحال الإيمانى والحال الشيطانى

وبهذا يعلم الفرق بين الحال الإيمانى والحال الشيطانى: فإن الحال الإيمانى : ثمرة المتابعة للرسول والإخلاص فى العمل وتجريد التوحيد، ونتيجته منفعة المسلمين فى دينهم ودنياهم . وهو إنما يصح بالاستقامة على السنة والوقوف مع الأمر والنهى .

والحال الشيطانى: نسبته إما شرك أو فجور، وهو ينشأ من قرب الشياطين والاتصال بهم ومشابهتهم، وهذا الحال يكون لعباد الأصنام والصلبان والنيران والشيطان، فإن صاحبه لما عبد الشيطان خلع عليه حالا يصطاد به ضعفاء العقول والإيمان، ولا إله إلا الله، وكم هلك بهؤلاء من الخلق: ﴿ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ﴾ [الأنعام: ١٣٧]، فكل حال خرج صاحبه عن حكم الكتاب ، وما جاء به الرسول شيطانى كائنا ما كان ، وقد سمعت بأحوال السحرة وعباد النار وعباد الصليب، وكثير مما ينتسب إلى الإسلام ظاهراً وهو برىء منه فى الباطن، له نصيب من هذا الحال بحسب موالاته للشيطان ومعاداته للرحمن .

وقد يكون الرجل صادقا ولكن يكون ملبوسا عليه بجهله ، فيكون حاله شيطانيا مع زهد وعبادة وإخلاص ، ولكن لبس عليه الأمر لقلة علمه بأمور الشياطين والملائكة ، وجهله بحقائق الإيمان ، وقد حكى هؤلاء وهؤلاء من ليس منهم بل هو متشبه صاحب مخاييل ومخاريق ، ووقع الناس فى البلاء بسبب عدم التمييز بين هؤلاء وهؤلاء ، فحسبوا

كل سوداء تمرة ، وكل بيضاء شحمة ، والفرقان أعز ما فى هذا العالم ، وهو نور يقذفه الله فى القلب ،ويفرق به بين الحق والباطل،ويزن به حقائق الأمور خيرها وشرها وصالحها وفاسدها،فمن عدم الفرقان وقع ولابد فى إشراك الشيطان ،فالله المستعان وعليه التكلان .

فصل
فى الفرق بين الحكم المنزل الواجب الاتباع والحكم المؤول الذى غايته أن يكون جائز الاتباع

والفرق بين الحكم المنزل الواجب الاتباع والحكم المؤول الذى غايته أن يكون جائز الاتباع: أن الحكم المنزل هو الذى أنزله الله على رسوله وحكم به بين عباده وهو حكمه الذى لا حكم له سواه .

وأما الحكم المؤول ، فهو أقوال المجتهدين المختلفة ، التى لا يجب اتباعها ولا يكفر ولا يفسق من خالفها ، فإن أصحابها لم يقولوا :هذا حكم الله ورسوله ، بل قالوا : اجتهدنا برأينا،فمن شاء قبله ومن شاء لم يقبله، ولم يلزموا به الأمة ،بل قال أبو حنيفة : هذا رأيى فمن جاءنا بخير منه قبلناه .

ولو كان هو عين حكم الله لما ساغ لأبى يوسف ومحمد وغيرهما مخالفته فيه ، كذلك مالك استشاره الرشيد أن يحمل الناس على ما فى الموطأ ، فمنعه من ذلك . وقال : قد تفرق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى البلاد ، وصار عند كل قوم علم غير ما عند الآخرين .

وهذا الشافعى ينهى أصحابه عن تقليده ويوصيهم بترك قوله إذا جاء الحديث بخلافه . وهذا الإمام أحمد ينكر على من كتب فتاواه ودونها ، ويقول : لا تقلدنى ولا تقلد فلانا ولا فلانا ، وخذ من حيث أخذوا ، ولو علموا ﷺ أن أقوالهم يجب اتباعها لحرموا على أصحابهم مخالفتهم،ولما ساغ لأصحابهم أن يفتوا بخلافهم فى شىء ،ولما كان أحدهم يقول ثم يفتى بخلافه فيروى عنه فى المسألة القولان والثلاثة وأكثر من ذلك،فالرأى والاجتهاد أحسن أحواله أن يسوغ اتباعه والحكم المنزل لا يحل لمسلم أن يخالفه ولا يخرج عنه .

وأما الحكم المبدل : وهو الحكم بغير ما أنزل الله ، فلا يحل تنفيذه ولا العمل به ، ولا يسوغ اتباعه ، وصاحبه بين الكفر والفسوق والظلم [١] .

---

(١) الروح (٣٨٦ ـ ٣٩٤) .

فصل
فى الفرق بين مسميات النفس
(المطمئنة ـ اللوامة ـ الأمارة بالسوء)

قد وقع فى كلام كثير من الناس أن لابن آدم ثلاثة أنفس، نفس مطمئنة، ونفس لوامة، ونفس أمارة، وأن منهم من تغلب عليه هذه ومنهم من تغلب عليه الأخرى، ويحتجون على ذلك بقوله تعالى: ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الفجر] وبقوله تعالى: ﴿ لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ ﴾ [القيامة]، وبقوله تعالى: ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ [يوسف : ٥٣]

والتحقيق أنها نفس واحدة ولكن لها صفات، فتسمى باعتبار كل صفة باسم، فتسمى مطمئنة باعتبار طمأنينتها إلى ربها بعبوديته ومحبته، وللإنابة إليه والتوكل عليه، والرضا به والسكون إليه .

فإن سمة محبته وخوفه ورجائه منها قطيع النظر عن محبة غيره وخوفه ورجائه، فيستغنى بمحبته عن حب ما سواه ، وبذكره عن ذكر ما سواه، وبالشوق إليه وإلى لقائه عن الشوق إلى ما سواه، فالطمأنينة إلى الله ـ سبحانه ـ حقيقة ترد منه سبحانه على قلب عبده تجمعه عليه، وترد قلبه الشارد إليه حتى كأنه جالس بين يديه؛ يسمع به ويبصر به ويتحرك به ويبطش به، فتسرى تلك الطمأنينة فى نفسه وقلبه ومفاصله، وقواه الظاهرة والباطنة تجذب روحه إلى الله ويلين جلده وقلبه ومفاصله إلى خدمته والتقرب إليه، ولا يمكن حصول الطمأنينة الحقيقية إلا بالله وبذكره وهو كلامه الذى أنزله على رسوله، كما قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد] .

فإن طمأنينة القلب سكونه واستقراره بزوال القلق والانزعاج والاضطراب عنه، وهذا لا يتأتى بشىء سوى الله تعالى وذكره البتة، وأما ما عداه فالطمأنينة إليه وبه غرور، والثقة به عجز . قضى الله ـ سبحانه وتعالى ـ قضاء لا مرد له أن من اطمأن إلى شىء سواه أتاه القلق والانزعاج والاضطراب من جهته كائنًا من كان، بل لو اطمأن العبد إلى علمه وحاله وعمله سلبه وزايله، وقد جعل سبحانه نفوس المطمئنين إلى سواه أغراضاً لسهام البلاء ليعلم عباده وأولياءه أن المتعلق بغيره مقطوع، والمطمئن إلى سواه عن مصالحه ومقاصده مصدود وممنوع .

وحقيقة الطمأنينة التى تصير بها النفس مطمئنة: أن تطمئن فى باب معرفة أسمائه

وصفاته ونعوت كماله إلى خبره الذى أخبر به عن نفسه وأخبرت به عنه رسله فتتلقاه بالقبول والتسليم والإذعان، وانشراح الصدر له ؛ وفرح القلب به. فإنه معرف من معرفات الرب ـ سبحانه ـ إلى عبده على لسان رسوله، فلا يزال القلب فى أعظم القلق والاضطراب فى هذا الباب حتى يخالط الإيمان بأسماء الرب تعالى وصفاته وتوحيده وعلوه على عرشه ، وتكلمه بالوحى بشاشة قلبه، فينزل عليه نزل الماء الزلال على القلب الملتهب بالعطش ، فيطمئن إليه ، ويسكن إليه، ويفرح به، ويلين له قلبه ومفاصله حتى كأنه شاهد الأمر كما أخبرت به الرسل ، بل يصير ذلك لقلبه بمنزلة رؤية الشمس فى الظهيرة لعينه، فلو خالفه فى ذلك من بين شرق الأرض وغربها لم يلتفت إلى خلافهم .

وقال : إذا استوحش من الغربة قد كان الصديق الأكبر مطمئنا بالإيمان وحده وجميع أهل الأرض يخالفه وما نقص ذلك من طمأنينته شيئا . فهذا أول درجات الطمأنينة ، ثم لا يزال يقوى كلما سمع بآية متضمنة لصفة من صفات ربه .

وهذا أمر لا نهاية له، فهذه الطمأنينة أصل أصول الإيمان التى قام عليه بناؤه، ثم يطمئن إلى خبره عما بعد الموت من أمور البرزخ وما بعدها من أحوال القيامة، حتى كأنه يشاهد ذلك كله عيانًا ، وهذا حقيقة اليقين الذى وصف به ـ سبحانه وتعالى ـ أهل الإيمان حيث قال: ﴿ **وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ** ﴿٤﴾ ﴾ [البقرة] ، فلا يحصل الإيمان بالآخرة حتى يطمئن القلب إلى ما أخبر الله ـ سبحانه ـ به عنها طمأنينته إلى الأمور التى لا يشك فيها ولا يرتاب.

فهذا هو المؤمن حقًا باليوم الآخر، كما فى حديث حارثة: أصبحت مؤمنًا حقًا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن لكل حق حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ » قال: عزفت نفسى عن الدنيا وأهلها، وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزًا ، وإلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وأهل النار يعذبون فيها . فقال : « عبد نور الله قلبه » (١) .

والطمأنينة إلى أسماء الرب تعالى وصفاته نوعان: طمأنينة إلى الإيمان بها وإثباتها واعتقادها . وطمأنينة إلى ما تقتضيه وتوجبه من آثار العبودية، مثاله: الطمأنينة إلى القدر وإثباته، والإيمان به يقتضى الطمأنينة إلى مواضع الأقدار التى لم يؤمر العبد بدفعها ولا قدرة له على دفعها، فيسلم لها ويرضى بها ولا يسخط ولا يشكو ولا يضطرب إيمانه، فلا ييأس على ما فاته، ولا يفرح بما أتاه ؛ لأن المصيبة فيه مقدرة قبل أن تصل إليه وقبل أن يخلق، كما قال تعالى : ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا**

---

(١) الطبرانى فى الكبير ٣ / ٢٦٦ (٣٣٦٧) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١/ ٦٢) : « فيه ابن لهيعة ، وفيه من يحتاج إلى الكشف عنه » .

﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ [الحديد]، وقال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ [التغابن : ١١] ، قال غير واحد من السلف : هو العبد تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم ، فهذه طمأنينة إلى أحكام الصفات وموجباتها وآثارها فى العلم ، وهى قدر زائد على الطمأنينة بمجرد العلم بها واعتقادها ، وكذلك سائر الصفات وآثارها ومتعلقاتها كالسمع والبصر والعلم والرضا والغضب والمحبة ، فهذه طمأنينة الإيمان .

وأما طمأنينة الإحسان ، فهى الطمأنينة إلى أمره امتثالا وإخلاصًا ونصحًا ، فلا يقدم على أمره إرادة ولا هوى ولا تقليدًا ، فلا يساكن شبهة تعارض خبره ولا شهوة تعارض أمره، بل إذا مرت به أنزلها منزلة الوساوس التى لأن يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يجدها ، فهذا كما قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم : « صريح الإيمان » (١) ، وعلامة هذه الطمأنينة أن يطمئن من قلق المعصية وانزعاجها إلى سكون التوبة وحلاوتها وفرحتها ، ويسهل عليه ذلك بأن يعلم أن اللذة والحلاوة والفرحة فى الظفر بالتوبة . وهذا أمر لا يعرفه إلا من ذاق الأمرين وباشر قلبه آثارهما ،فللتوبة طمأنينة تقابل ما فى المعصية من الانزعاج والقلق، ولو فتش العاصى عن قلبه لوجد حشوه المخاوف والانزعاج والقلق والاضطراب ، وإنما يوارى عنه شهود ذلك سكر الغفلة والشهوة،فإن لكل شهوة سكرًا يزيد على سكر الخمر ، وكذلك الغضب له سكر أعظم من سكر الشراب .

ولهذا ترى العاشق والغضبان يفعل ما لا يفعله شارب الخمر، وكذلك يظهر من قلق الغفلة والإعراض إلى سكون الإقبال على الله وحلاوة ذكره،وتعلق الروح بحبه ومعرفته ، فلا طمأنينة للروح بدون هذا أبدًا ، ولو أنصفت نفسها لرأتها إذا فقدت ذلك فى غاية الانزعاج والقلق والاضطراب ، ولكن يواريها السكر ، فإذا كشف الغطاء تبين له حقيقة ما كان فيه .

وها هنا سر لطيف يجب التنبيه عليه،والتنبه له،والتوفيق له بيد من أزمة التوفيق بيده، وهو أن الله ـ سبحانه ـ جعل لكل عضو من أعضاء الإنسان كمالا إن لم يحصل له فهو فى قلق واضطراب وانزعاج بسبب فقد كماله الذى جعل له مثاله : كمال العين بالإبصار وكمال الأذن بالسمع ، وكمال اللسان بالنطق ، فإذا عدمت هذه الأعضاء القوى التى بها كمالها حصل الألم والنقص بحسب فوات ذلك ، وجعل كمال القلب ونعيمه وسروره ولذته

(١) مسلم (٢٣٢ / ٢٠٩) فى الإيمان ، باب : بيان الوسوسة فى الإيمان وما يقوله من وجدها ، وأبو داود (٥١١١) فى الأدب ، باب : فى رد الوسوسة ، وأحمد (٢ / ٤٤١) .

وابتهاجه فى معرفته سبحانه وإرادته ومحبته والإنابة إليه والإقبال عليه والشوق إليه والأنس به ، فإذا عدم القلب ذلك كان أشد عذابًا واضطرابًا من العين التى فقدت النور الباصر ومن اللسان الذى فقد قوة الكلام والذوق ، ولا سبيل له إلى الطمأنينة بوجه من الوجوه ولو نال من الدنيا وأسبابها ومن العلوم ما نال ، إلا بأن يكون الله وحده هو محبوبه وإلهه ومعبوده وغاية مطلوبه ، وأن يكون هو وحده مستعانه على تحصيل ذلك ، فحقيقة الأمر أنه لا طمأنينة له بدون التحقق بإياك نعبد وإياك نستعين ، وأقوال المفسرين فى الطمأنينة ترجع إلى ذلك .

قال ابن عباس رضي الله عنهما المطمئنة : المصدقة ، وقال قتادة : هو المؤمن اطمأنت نفسه إلى ما وعد الله ، وقال الحسن : المصدقة بما قال الله تعالى . وقال مجاهد : هى النفس التى أيقنت بأن الله ربها ، المسلمة لأمره فيما هو فاعل بها . وروى منصور عنه ، قال : النفس التى أيقنت أن الله ربها وضربت جأشًا [1] لأمره وطاعته . وقال ابن أبى نجيح عنه : النفس المطمئنة المخبتة [2] إلى الله ، وقال أيضًا : هى التى أيقنت بلقاء الله ، فكلام السلف فى المطمئنة يدور على هذين الأصلين : طمأنينة العلم والإيمان ، وطمأنينة الإرادة والعمل .

فإذا اطمأنت من الشك إلى اليقين ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن الغفلة إلى الذكر ، ومن الخيانة إلى التوبة،ومن الرياء إلى الإخلاص ، ومن الكذب إلى الصدق ، ومن العجز إلى الكيس ، ومن صولة العجب إلى ذلة الإخبات ، ومن التيه إلى التواضع ، ومن الفتور إلى العمل ـ فقد باشرت روح الطمأنينة . وأصل ذلك كله ومنشؤه من اليقظة ، فهى أول مفاتيح الخير ، فإن الغافل عن الاستعداد للقاء ربه والتزود لمعاد بمنزلة النائم بل أسوأ حالا منه ؛ فإن العاقل يعلم وعد الله ووعيده وما تتقاضاه أوامر الرب تعالى ونواهيه وأحكامه من الحقوق ، لكن يحجبه عن حقيقة الإدراك ويقعده عن الاستدراك سنة القلب وهى غفلته التى رقد فيها فطال رقوده ،وركد وأخلد إلى نوازع الشهوات فاشتد إخلاده وركوده ، وانغمس فى غمار الشهوات واستولت عليه العادات ومخالطة أهل البطالات،ورضى بالتشبه بأهل إضاعة الأوقات ، فهو فى رقاده مع النائمين ، وفى سكرته مع المخمورين ، فمتى انكشف عن قلبه سنة هذه الغفلة بزجرة من زواجر الحق فى قلبه استجاب فيها لواعظ الله فى قلب عبده المؤمن ، أو همة عليه آثارها معول الفكرة فى المحل القابل ، فضرب بمعول

---

(١) ضربت جاشًا : أى تثبت عند الشدائد ، ومعنى هذا أى أقبلت على طاعة الله سبحانه وتعالى وامتثلت أمره طاعة وحبًا لا قهراً وكرهًا .

(٢) المخبتة : من الإخبات : الخشوع والاستكانة

فكره وكبر تكبيرة أضاءت له منها قصور الجنة ، فقال :

ألا يـا نفس ويحـك ساعديني بسعى منـك فى ظلـم الليالـى

لعلك فـى القيامـة أن تفـوزى بطيب العيش فى تلك العلالى

فأثارت تلك الفكرة نورًا رأى فى ضوئه ما خلق له ، وما سيلقاه بين يديه من حين الموت إلى دخول دار القرار ،ورأى سرعة انقضاء الدنيا وعدم وفائها لبنيها،وقتلها لعشاقها ، وفعلها بهم أنواع المثلات ، فنهض فى ذلك الضوء على ساق عزه قائلا : ﴿ **يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّه** ﴾ [الزمر : ٥٦] ، فاستقبل بقية عمره التى لا قيمة لها مستدركا بها ما فات ، محييًا بها ما أمات ، مستقيلا بها ما تقدم له من العثرات ، منتهزا فرصة الإمكان التى إن فاتت فاته جميع الخيرات .

ثم يلحظ فى نور تلك اليقظة وفود نعمة ربه عليه من حين استقر فى الرحم إلى وقته، وهو يتقلب فيها ظاهرًا وباطنًا ، ليلا ونهارًا ، ويقظة ومناما ، سرًا وعلانية ، فلو اجتهد فى إحصاء أنواعها لما قدر ، ويكفى أن أدناها نعمة النفس ، ولله عليه في كل يوم أربعة وعشرون ألف نعمة فما ظنك بغيرها .

ثم يرى فى ضوء ذلك النور أنه آيس من حصرها وإحصائها ، عاجز عن أداء حقها ، وإن المنعم بها إن طالبه بحقوقها استوعب جميع أعماله حق نعمة منها ، فيتيقن حينئذ أنه لا مطمع له فى النجاة إلا بعفو الله ورحمته وفضله .

ثم يرى فى ضوء تلك اليقظة أنه لو عمل أعمال الثقلين من البر لاحتقرها بالنسبة إلى جنب عظمة الرب تعالى ، وما يستحقه بجلال وجهه وعظم سلطانه ، هذا لو كانت أعماله منه ، فكيف وهى مجرد فضل الله ومنته وإحسانه حيث يسرها له وأعانه عليها ، وهيأه لها وشاءها منه وكونها،ولو لم يفعل ذلك لم يكن له سبيل إليها ، فحينئذ لا يرى أعماله منه ، وأن الله ـ سبحانه ـ لن يقبل عملا يراه صاحبه من نفسه حتى يرى عين توفيق الله له وفضله عليه ومنته ، وأنه من الله لا من نفسه ، وأنه ليس له من نفسه إلا الشر وأسبابه ، وما به من نعمة فمن الله وحده ، صدقة تصدق بها عليه ، وفضلا منه ساقه إليه، من غير أن يستحقه بسبب ويستأهله بوسيلة ، فيرى ربه ووليه ومعبوده أهلا لكل خير ، ويرى نفسه أهلا لكل شر ، وهذا أساس جميع الأعمال الصالحة الظاهرة والباطنة ، وهو الذى يرفعها ويجعلها فى ديوان أصحاب اليمين .

ثم تبرق له فى نور تلك اليقظة بارقة أخرى ، يرى فى ضوئها عيوب نفسه وآفات عمله

وما تقدم له من الجنايات والإساءات وهتك الحرمات ، والتقاعد عن كثير من الحقوق والواجبات ، فإذا انضم ذلك إلى شهود نعم الله عليه وأياديه لديه ، رأى أن حق المنعم عليه فى نعمه وأوامره لم يبق له حسنة واحدة يرفع بها رأسه ، فيطمئن قلبه ، وانكسرت نفسه،وخشعت جوارحه ، وسار إلى الله ناكس الرأس بين مشاهدة نعمه ومطالعة جناياته ، وعيوب نفسه وآفات عمله ، قائلا : « أبوء لك بنعمتك على ، وأبوء لك بذنبى ، فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » ، فلا يرى لنفسه حسنة ولا يراها أهلا لخير فيوجب له أمرين عظيمين .

أحدهما : استكثار ما من الله عليه .

والثانى : استقلال ما منَّه من الطاعة كائنة ما كانت .

ثم تبرق له بارقة أخرى يرى فى ضوئها عزة وقته وخطره وشرفه،وأنه رأس مال سعادته فيبخل به أن يضيعه فيما يقربه إلى ربه ، فإن فى إضاعته الخسران والحسرة ،والندامة ، وفى حفظه وعمارته الربح والسعادة ، فيشح بأنفاسه أن يضيعها فيما لا ينفعه يوم معاده .

ثم يلحظ فى ضوء تلك البارقة ما تقتضيه يقظته من سنة غفلته من التوبة ، والمحاسبة والمراقبة والغيرة لربه ، أن يؤثر عليه غيره ، وعلى حظه من رضاه وقربه وكرامته ببيعه بثمن بخس،فى دار سريعة الزوال . وعلى نفسه أن يملك رقها لمعشوق لو فكر فى منتهى حسنه ، ورأى آخره بعين بصيرة لأنف لها من محبته . فهذا كله من آثار اليقظة وموجباتها ، وهى أول منازل النفس المطمئنة التى نشأ منها سفرها إلى الله والدار الآخرة .

وأما النفس اللوامة: وهى التى أقسم بها سبحانه فى قوله: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ [القيامة] فاختلف فيها ، فقالت طائفة : هى التى لا تثبت على حال واحدة ،أخذوا اللفظة من التلوم وهو التردد ، فهى كثيرة التقلب والتلون وهى من أعظم آيات الله ، فإنها مخلوق من مخلوقاته تتقلب وتتلون فى الساعة الواحدة فضلا عن اليوم والشهر والعام والعمر ألوانا متلونة ،فتذكر وتغفل ، وتقبل وتعرض ، وتلطف وتكثف ، وتنيب وتجفو ، وتحب وتبغض ، وتفرح وتحزن ، وترضى وتغضب ، وتطيع وتعصى ،وتتقى وتفجر ، إلى أضعاف أضعاف ذلك من حالاتها وتلونها ، فهى تتلون كل وقت ألوانا كثيرة ، فهذا قول .

وقالت طائفة :اللفظة مأخوذة من اللوم،ثم اختلفوا فقالت فرقة : هى نفس المؤمن ، وهذا من صفاتها المجردة ، قال الحسن البصرى : إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه دائما يقول : ما أردت بهذا ؟ لم فعلت هذا ؟ كان غير هذا أولى ، ونحو هذا من الكلام .

وقال غيره : هى نفس المؤمن توقعه فى الذنب ثم تلومه عليه ، فهذا اللوم من الإيمان بخلاف الشقى ، فإنه لا يلوم نفسه على ذنب ، بل يلومها وتلومه على فواته .

وقالت طائفة : بل هذا اللوم للنوعين ، فإن كل أحد يلوم نفسه برًا كان أو فاجرًا ، فالسعيد يلومها على ارتكاب معصية الله وترك طاعته ، والشقى لا يلومها إلا على فوات حظها وهواها .

وقالت فرقة أخرى : هذا اللوم يوم القيامة ، فإن كل أحد يلوم نفسه إن كان مسيئًا على إساءته ، وإن كان محسنًا على تقصيره .

وهذه الأقوال كلها حق ، ولا تنافى بينها ، فإن النفس موصوفة بهذا كله وباعتباره سميت لوامة ، لكن اللوامة نوعان :

لوامة ملومة : وهى النفس الجاهلة الظالمة التى يلومها الله وملائكته .

ولوامة غير ملومة : وهى التى لا تزال تلوم صاحبها على تقصيره طاعة الله مع بذله جهده فهذه غير ملومة .

وأشرف النفوس من لامت نفسها فى طاعة الله،واحتملت ملام اللائمين فى مرضاته ، فلا تأخذها فيه لومة لائم . فهذه قد تخلصت من لوم الله ، وأما من رضيت بأعمالها ولم تلم نفسها ولم تحتمل فى الله ملام اللوام ،فهى التى يلومها الله عز وجل .

وأما النفس الأمارة : فهى المذمومة ، فإنها التى تأمر بكل سوء ، وهذا من طبيعتها إلا ما وفقها الله وثبتها وأعانها . فما تخلص أحد من شر نفسه إلا بتوفيق الله له ، كما قال ـ تعالى ـ حاكيًا عن امرأة العزيز : ﴿ **وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴿٥٣﴾ ﴾ [يوسف] ،وقال تعالى : ﴿ **وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا** ﴾ [النور : ٢١] ، وقال تعالى لأكرم خلقه عليه وأحبهم إليه : ﴿ **وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا** ﴿٧٤﴾ ﴾ [الإسراء] . وكان النبى صلى الله عليه وآله وسلم يعلمهم خطبة الحاجة : « الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له » (١) . فالشر كامن فى النفس وهو يوجب سيئات الأعمال ، فإن خلى الله بين العبد وبين نفسه هلك بين شرها وما تقتضيه من سيئات الأعمال ، وإن وفقه الله وأعانه نجاه من ذلك كله ،

---

(١) أبو داود (٢١١٨) فى النكاح ، باب : فى خطبة النكاح ، والترمذى (١١٠٥) فى النكاح ، باب : ما جاء فى خطبة النكاح ، والنسائى (١٤٠٤) فى الجمعة ، باب : كيف الخطبة ، وأحمد (١ / ٣٩٣) .

فنسأل الله العظيم أن يعيذنا من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا .

وقد امتحن الله ـ سبحانه ـ الإنسان بهاتين النفسين : الأمارة واللوامة ، كما أكرمه بالمطمئنة،فهى نفس واحدة تكون أمارة ثم لوامة ثم مطمئنة ، وهى غاية كمالها وصلاحها ، وأيد المطمئنة بجنود عديدة ، فجعل الملك قرينها وصاحبها الذى يليها ويسددها ، ويقذف فيها الحق ويرغبها فيه ويريها حسن صورته ، ويزجرها عن الباطل ويزهدها فيه ويريها قبح صورته ، وأمدها بما علمها من القرآن والأذكار وأعمال البر ، وجعل وفود الخيرات ومداد التوفيق تنتابها ويصل إليها من كل ناحية ، وكلما تلقتها بالقبول والشكر والحمد له ورؤية أوليته فى ذلك كله ازداد مددها ، فتقوى على محاربة الأمارة . فمن جندها وهو سلطان عساكرها وملكها الإيمان واليقين ، فالجيوش الإسلامية كلها تحت لوائه ناظرة إليه ، إن ثبت ثبتت وإن انهزم ولت على أدبارها . ثم أمراء هذا الجيش ومقدمو عساكره شعب الإيمان المتعلقة بالجوارح على اختلاف أنواعها ، كالصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ونصيحة الخلق والإحسان إليهم بأنواع الإحسان ، وشعبه الباطنية المتعلقة بالقلب ؛ كالإخلاص والتوكل والإنابة والتوبة والمراقبة والصبر والحلم والتواضع والمسكنة وامتلاء القلب من محبة الله ورسوله وتعظيم أوامر الله وحقوقه والغيرة لله وفى الله والشجاعة والعفة والصدق والشفقة والرحمة ، وملاك ذلك كله الإخلاص والصدق فلا يتعب الصادق المخلص ، فقد أقيم على الصراط المستقيم فيسار به وهو راقد ، ولا يتعب من حرم الصدق والإخلاص فقد قطعت عليه الطريق واستهوته الشياطين فى الأرض حيران، فإن شاء فليعمل وإن شاء فليترك ، فلا يزيده عمله من الله إلا بعدًا ، وبالجملة ، فما كان لله وبالله فهو من جند النفس المطمئنة .

وأما النفس الأمارة فجعل الشيطان قرينها وصاحبها الذى يليها ، فهو يعدها ويمنيها ، ويقذف فيها الباطل ، ويأمرها بالسوء ويزينه لها ، ويطيل فى الأمل ويريها الباطل فى صورة تقبلها وتستحسنها ، ويمدها بأنواع الإمداد الباطل من الأمانى الكاذبة والشهوات المهلكة، ويستعين عليها بهواها وإرادتها ، فمنه يدخل عليها ويدخل عليها كل مكروه ، فما استعان على النفوس بشىء هو أبلغ من هواها وإرادتها إليه .

وقد علم ذلك إخوانه من شياطين الإنس ، فلا يستعينون على الصور الممنوعة منهم بشىء أبلغ من هواهم وإراداتهم فإذا أعيتهم صورة طلبوا بجهدهم ما تحبه وتهواه ، ثم طلبوا بجهدهم تحصيله فاصطادوا به تلك الصورة ، فإذا فتحت لهم النفس باب الهوى دخلوا منه فجاسوا خلال الديار ، فعاثوا وأفسدوا وفتكوا وسبوا ، وفعلوا ما يفعله العدو

ببلاد عدوه إذا تحكم فيها ، فهدموا معالم الإيمان والقرآن والذكر والصلاة ، وخربوا المساجد ، وعمروا البيع والكنائس والحانات والمواخير ، وقصدوا إلى الملك فأسروه وسلبوه ملكه ونقلوه من عبادة الرحمن إلى عبادة البغايا والأوثان،ومن عز الطاعة إلى ذل المعصية ، ومن السماع الرحمانى إلى السماع الشيطانى ، ومن الاستعداد للقاء رب العالمين إلى الاستعـداد للقاء إخـوان الشياطين ، فبينا هو يراعى حقوق الله وما أمر به ، إذ صار يرعى الخنازير ، وبينما هو منتصب لخدمة العزيز الرحيم ، إذ صار منتصبا لخدمة كل شيطان رجيم .

والمقصود : أن الملك قرين النفس المطمئنة ، والشيطان قرين الأمارة ، وقد روى أبو الأحوص عن عطاء بن السائب ، عن مرة ، عن عبد الله قـال : قـال رسول الله ﷺ : « إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق،فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله وليحمد الله، ومن وجد الآخر فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم » (١)، ثم قرأ: ﴿ **الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء** ﴾ [البقرة : ٢٦٨] وقد رواه عمر عن عطاء بن السائب وزاد فيه عمر وقال : سمعنا فى هذا الحديث أنه كان يقال :إذا أحس أحدكم من لمة الملك شيئًا فليحمد الله وليسأله من فضله،وإذا أحس من لمة الشيطان شيئًا فليستغفر الله وليتعوذ من الشيطان (٢) .

---

(١) الترمذى (٢٩٨٨) فى التفسير ، باب : ومن سورة البقرة ، وقال : « حسن غريب . . . » ، والنسائى فى الكبرى (١١٠٥١) فى التفسير ، باب : قوله تعالى : ﴿ **الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ** ﴾ .

(٢) الروح (٣٣٠ ـ ٣٤١) .